الفصل الخامس

فجر الثقافة اليونانية

هوميروس وهسيودوس

معجزة اليونان — الإلياذة :

ينبغى أن نقسم بحثنا هنا إلى فصول لكى نريح القارئ ، غير أنه يحسن أن نضع نصب أعيننا أن مثل هذا التقسيم لا يتسق تماماً وطبيعة الموضوع لأنه ليس بين هذه الفصول حدود عازلة بل إن مجال بحثها متداخل بعضه فى بعض ، يطغى بعضه على بعض . فالمرحلة التى قمنا بدراستها فى الفصل الرابع أوصلتنا إلى العصر الموقينى أو المينوى المتأخر وهو الذى أعقبه العصر الهوميرى ، ولكن جذور العصر الهوميرى موقينية ، بل أكثر قدماً من العصر الموقينى . وعلى ذلك يلزمنا أن نستبق فى أذهاننا أكثر ما نستطيع اصطلاحات العصر الموقينى والمينوى إن أردنا أن نقدر مدى الازدهار الهوميرى .

يتحدث الناس كثيراً عن المعجزة اليونانية ، لأن هذه هى أبسط وسيلة للتعبير عن إعجابهم بما وصل إليه اليونان ، وعن عجزهم أن يجدوا له تعليلا . فهذا الإعجاب يبدأ من نهاية العصر الموقينى ، ومن نهايته بالذات ، فى وقت لم تكن الثقافة اليونانية الجديدة تحررت تماماً من أصولها . وأول ما خلف لنا هذا العصر ملحمة طويلة كتبت باللغة اليونانية ، وهى الإلياذة .

الشعراء المتجولون والمنشدون :

فى رأيى أنه لا حاجة بنا إلى تحليل هذه الملحمة ووصفها ، فإن احتاج قارئ إلى شىء من ذلك فمن اليسير أن يجد ضالته فى مراجع كثيرة ، أو يمكنه

أن يقرأ فى لغته ترجمة لهذه الملحمة نفسها. يقول الرواة الأقدمون إن الإلياذة من نظم هوميروس . ولو أردنا أن نجيب عن السؤال « من هو هوميروس ؟ » لم نستطع أن نجيب بأكثر من أن هوميروس « مؤلف الإلياذة » . ويبدو أنه ليس هناك من سبيل إلى الإفلات من هذه الدائرة . ومهما يكن الأمر فإن ذكر هوميروس شاع بسرعة عندما أخذت الحضارة اليونانية تقترب من النضج ، ولم يتطرق الشك إلى أحد فى حقيقة وجوده . تخيلوه كهلا كفيف البصر[١] ينشد أو يلقى مقطوعاته ، ونسبته إليها سبع مدن[٢] يونانية ، فزعمت كل منها أنها مسقط رأسه . وأمثال هذه الادعاءات المتضاربة خير شاهد على الجهالة ، ولو تزيّت بزى العلم والمعرفة . فهى تدل على أنه حتى فى الأزمنة القديمة لم يبق للناس معرفة بهوميروس على أنه إنسان عادى . كيف أمكن حدوث ذلك ؟ كيف أمكن أن تبقى ملحمة عظيمة كهذه ويختفى مؤلفها ؟

على أن دراسة الأدب المقارن[٣] فى العصر الحاضر جعلت تفسير هذا السر أكثر سهولة ويسراً ؛ فالإلياذة فريدة لاجتماع صفتى القدم والجمال فيها . ولكن هناك قصائد مماثلة أبدعتها بين حين وآخر أمم عديدة فى مختلف أرجاء المعمورة . ذلك لأن نفس العوامل . كما يبدو ، تنتج نتائج متشابهة فى كل الأمم . فالرغبة فى تفسير أصولها وإحياء ذكرى الحوادث الكبرى فى ماضيها ألهمت شعراء نجهل أسماءهم من أمم عديدة إلى نظم الأشعار . وكان إنتاجهم موزوناً على الدوام ، إلا فيما ندر ، لما جبل عليه الإنسان من حب دفين للنغم ، ومن جهة أخرى أعان النظم على الاستذكار . وهكذا أمكن حفظ التراث القومى بالنقل على الألسنة أبد الدهر دون حاجة إلى طريق الكتابة ، مع العلم بأن هذه الأشعار نظمت فى أكثر الأحيان قبل أن تعرف الكتابة فى كل أمة يعنينا ذكرها فى هذا المضمار ، أو على الأقل قبل أن تشيع الكتابة بين أهلها . وساعد الشعراء المتجولون المتنقلون من بلد إلى آخر على نظم هذه الأشعار وأنشدوها لإدخال السرور وإذكاء الروح العالية فى نفوس أرباب ضيافتهم

ثم تطورت بعض القصائد التى حازت قبول الناس إلى مستوى واحد ، لا من حيث شكلها العام فحسب . بل من حيث خصائصها القصصية والأسلوبية . وأحبت الشعوب القديمة ما امتاز بالقدم من القصص ، وهى فى ذلك لا تختلف عن أطفالنا اليوم . ومن البديهى أن القصص الجديدة لم تخل من عنصر الجدة والسرور ، ولكن كان سرور المستمعين أعظم حين يتعرفون قصة قديمة ، حيث يبعث الشاعر المتجول فى أشعاره أبطالا معروفين ، ويصفهم بألفاظ معروفة مألوفة . وترقب المستمعون الأوصاف الأخاذة والاستعارات بل الأبيات الشعرية الكاملة التى وافقت هوى فى آذانهم واستهوت خيالهم تدريجاً فى سابق المرات ، واستقبلوها بالابتسام أو بغيره من علامات الاستحسان[٤] . ويدرك الشاعر المتجول الماهر أن الضرر كل الضرر فى إهمال تلك الأشياء ، وهكذا تبلورت تدريجاً الخصائص الأخرى للقصة الشعرية من حيث المظهر والمادة .

ومن الممكن أن نفترض أن أكثر الشعراء المتجولين لم يختلفوا عن الموسيقيين الحاليين الذين يتنقلون فى العصر الحاضر من مكان إلى آخر يؤدون مقطوعات حفظوها ، وإن أضافوا إليها شيئاً فهو ضئيل . لم يزد فن أولئك الشعراء المتجولين على الذاكرة الحافظة والأداء الجيد ، ما عدا فئة قليلة منهم دب الطموح إلى نفوسهم ، فتاقت إلى خلق قصائد جديدة ، أو إلى تحوير قصائد قديمة تحويراً تاماً ، أى أن هذه الفئة القليلة أشبهت جماعة المفتنين Virtuosi فى عصرنا الحالى ، وهم الذين لا يقنعون بأداء مؤلفات كبار الموسيقيين ، بل يعمدون دائماً إلى أداء ما يبتكرون هم من قطع موسيقية . ولذا اتسع المجال لتنويع كبير تتراوح درجاته بين المواهب الابتكارية التى لابد أن تجد متنفساً وبين الروح السلبية الحافظة . على أن الشعراء المتجولين والتروبادور فى جميع الشعوب اتفقوا على شىء واحد ، وهو استغلال الذكريات القومية فى أشعارهم وأغنياتهم ، لأن مواهبهم الابتكارية والتقليدية تأثرت واسترشدت بضرورة إمتاع الجماهير ، وهذه تميل إلى القديم على وجه عام ، وليس لدى الشعراء المتجولين من وسيلة

لإمتاعها والفوز برضاها أفضل من إنشاد القصائد التى استهوت الأفئدة من قبل . ولذا اختتم الشعراء المتجولون مهما علت مقدرتهم وعبقريتهم الأصلية كما يختم المتفننون الذين يضيفون إلى براعتهم أو ما يطلب إليهم ترديده encores بإنشاد الأغانى القديمة الحبيبة إلى الناس . والشاعر [٥] الذى اصطلحنا على تسميته هوميروس كان أكثر هؤلاء الشعراء المتجولين نجاحاً ومع أنه من المحال أن نعرف مقدار مبتكراته ولكن يمكن أن نفترض ونحن مطمئنون أنه مهما كانت كمية هذه المبتكرات ، فإنه ورث أكثر منها عن أسلافه ، وأنه أعان على تخليد أحسن ما ألف السالفون . ومن المحتمل أنه كان بوجه عام « ناشراً » عبقرياً ، جمع أفضل ما وصل إليه من قصائد ، وصقلها بما له من مقدرة فنية ، فجعل منها وحدة واحدة . وهذا الفرض يساعدنا على شرح وحدة الإلياذة ، كما يعلل أيضاً سقطاتها التى تطالعنا بين حين وآخر من أمثال التكرار الذى لا تدعو إليه ضرورة وأمثال الانتقال بطريقة غير سليمة .

وتتضح طرق هؤلاء الشعراء المتجولين والمنشدين المتأخرين [٦] بسهولة من الدراسة المقارنة للآداب المختلفة فى العصور الأولى ، وتتضح أكثر بدراسة منتجات قرنائهم من الشعراء المتجولين والمنشدين فى العصر الحاضر . وهذا ما فعله المرحوم ميلمان بارى (المتوفى عام ١٩٣٥) وهو من علماء فقه اللغة فى جامعة هارفارد طاف بارى فى يوغوسلافيا يحمل جهازاً للتسجيل وجمع ملحمتين شعبيتين طويلتين جداً من أفواه المنشدين أنفسهم . ومن سوء الحظ أنه لم يستطع أن يتم عمله [٧] لوفاته بسبب حادثة معينة ، على أنه من المحتمل أن المنشد فى عصر هوميروس لم يكن يختلف اختلافاً جوهرياً فى وجهة نظره أو مزاجه أو طرائقه عن الشاعر اليوغسلافى الضرير هوسو الذى خلدت جهود ميلمان بارى أناشيده .

من الصعب علينا إلى حد ما أن نفهم الرواية الشفوية تمام الفهم ، لأنها مقدرة على استذكاره قصائد طويلة وهى ملكة كاد الإنسان يفقدها فى العصر الحديث فقداناً تاماً ، غير أن هذه الملكة توافرت لبعض الأفراد فى العصور القديمة إلى درجة تكاد لا تصدق لو لم تكن لدينا أدلة كثيرة عليها .

هوميروس :

« من هو هوميروس ؟ » سؤال لا فائدة منه لو أريد به أى رجل كان هو ؟ وما الفرق بينه وبين غيره من الشعراء المتجولين ؟ ومتى عاش وأين أقام ؟ وما أشبه ذلك . أما السؤال : هل كان هناك هوميروس ؟ فهو سؤال فى الصميم وإنى أظن أن من الممكن أن نجيب عليه بالإيجاب ، لأن وحدة الإلياذة التى تدعو إلى الإعجاب على الرغم مما يعتورها من نقص يستحيل تعليلها بغير ذلك . لا يعنينا كيف نظمت أجزاؤها المختلفة ، ولا متى نظمت . كان هناك شاعر متجول فحل رتبها على نسق من المحتمل أنه لم يختلف كثيراً عما وصل إلينا .

سوف نعود إلى المنهج الذى اتبع فى رواية الإلياذة فيما بعد . أما الآن فلنجب أولاً عن سؤال هام : فى أى وقت تم نظم الإلياذة ؟ هل كان ذلك زمن حرب طروادة التى تتألف من بعض قصصها النواة التاريخية للإلياذة ، وهى الحروب التى اختلف المؤلفون اليونانيون فى تعيين تاريخها ، فجعلها بعضهم حوالى عام ١٢٨٠ ق. م. وأرجعها بعض آخر إلى ١١٨٠ ق. م. على أن الشك فى قرن واحد من الزمان لا يقدم ولا يؤخر هنا ، لأن مدة من الزمن امتدت أضعافاً مضاعفة بالقياس إلى ذلك ، لا بد أن مرت بين الحوادث التاريخية الواردة فى هذه الملحمة وبين إتمام كتابتها[٩] . ثم إن بعض أجزائها — مثل قائمة السفن ، أو دليل الحملات الحربية اليونانية[١٠] — ترجع إلى أقدم العصور ، أو بعبارة أخرى تنعكس فيها صور أسبق فى زمنها من زمن الحرب الطروادية ، مع العلم بأن البناء الفنى لتلك الأجزاء لم يك من المستطاع قبل القرن العاشر أو التاسع[١١] بزمن طويل . فإن كان علينا أن نحدد قرناً واحداً لا غير فلن نبعد عن الحقيقة كثيراً إذا عينا القرن التاسع قبل الميلاد لأن هذا التاريخ يوافق جيداً الحوادث السابقة والمتأخرة .

ليس ثمة معنى للجدل فى هذا الموضوع أكثر من ذلك هنا ، ولا سيما

أن الجدل لن يصبح مقنعاً مهما تشعب وتنوع . ولكنى أود أن أؤكد نقطة واحدة فقط ، وهى أنه ليس ثمة إشارة واضحة للكتابة فى الإلياذة (ولا فى الأوديسة فأمرهما هنا سواء) عدا إشارة واحدة جاءت عابرة نصها « ولكن برويتوس أرسل بيليروفون إلى لوقيا يحمل إشارات قاتلة ، إذ خط علامات كثيرة على لوحين منطبقين لتسميم عقل الملك (ضد بيليروفون)[١٢] . لا شك عندى أن « العلامات القاتلة » تشير إلى نوع من الكتابة كالكتابة المينوية التى كشفها فى جزيرة كريت سير أرثر إيفانز ، فإن لوقيا كانت مستعمرة كريتية . وعلى هذا نستطيع أن نتخذ من هذا البيت المقتطف من أشعار هوميروس برهاناً على أن نوعاً من الكتابة كان معروفاً فى تلك الأيام ، غير أنه لاحاجة بنا إلى هذا لأن لدينا نماذج كثيرة من تلك الكتابة ، على الرغم من أن رموزها لم تحل بعد . ذلك أن الحضارة الإيجية عرفت الكتابة وربما يرجع اختراع الكتابة إلى جزيرة كريت ، لكن استخدامها اقتصر على النقوش والمدونات القانونية أو السحرية والقوائم والحسابات وغيرها من المتون الفنية القصيرة ، دون أن يدور بخلد شاعر متجول أن يستعملها فى الأغراض الأدبية ، وهذه حقيقة لا تقتصر على بلاد اليونان فحسب ، بل هى حقيقة عامة أجمع عليها الباحثون فى علم الإنسان وفى علم فقه اللغة المقارن . والواقع أن مرحلة من الزمان تمتد أحياناً إلى عدة قرون تكون بين اختراع الكتابة وبين انتشار استخدامها . ثم إنه من باب الخضوع للعادات التى امتدت جذورها فى الماضى السحيق ، واعتباراً لمصالح الشعراء المتجولين لم يكن الشعر الحماسى من أول الأشياء التى دونت كتابة وإنما من آخرها .

ونستطيع أن نجزم أن هوميروس لم يكن يهتم بالكتابة إلا على أنها وسيلة للتفاهم نادرة غامضة يمكن أن تستخدم فى الأحوال الشاذة ، ولكنها وسيلة لا تعنى رجال الأدب . ونستطيع كذلك أن نؤكد أنه لم يدر فى خلد هوميروس أن يدون منظوماته . وكيف يكون فى استطاعته أن يفعل ذلك مع العلم بأن لا قيمة لاختراع الكتابة فى الأغراض الأدبية إذا لم يكملها اختراع أدوات الكتابة .

ولم يكن فى زمن هوميروس من هذه الأدوات ما يلائم المؤلفات الطويلة ، فأوراق البردى لم تصبح ميسورة فى بلاد اليونان حتى بداية الأسرة السادسة والعشرين المصرية (أسرة صا الحجر) أى أثناء حكم بسماتيك الأول (٦٦٣ — ٦٠٩) .

ملحوظات أكثر فى الإلياذة :

وليست الإلياذة أقدم أثر أدبى فى الآداب الأوربية ، من حيث الحجم والمستوى فحسب ، بل — وهذا هومعجزة المعجزات — من حيث علو الذروة والطول البالغ [١٣] . لا فضل طبعاً فى كبر الحجم ، ولكن المقطوعة الطويلة أفضل كثيراً من أى جزء منها . زد على ذلك أنه مما يثير الدهش أن نجد على عتبة الأدب الأوربى نفسه ، لا قطعاً ضئيلة قليلة استمد منها الشعراء الأولون لتجربة مواهبهم ، بل أثراً أدبياً ضخماً يجمع جهود كثير من العقول والأجيال وليس لذلك من تشبيه إلا بأن نفترض أن أقدم الآثار المعمارية المعروفة لنا جاءت فى الحجم ودقة المعمار كإحدى الكتدرائيات العظيمة التى خلفتها القرون الوسطى . فالإلياذة فى نهجها وأسلوبها جد قريبة من الكمال ، حتى إنها بقيت نموذجاً للتفوق إلى أيامنا هذه . وإننا نعجب بها لا لأنها ترجع إلى عصر سحيق بل بقطع النظر عن ذلك . والواقع أن أكثر النقاد يجمع على أن الإلياذة أعظم الملاحم الغربية ، مع جواز استثناء الأوديسة . وهذه الملحمة ، أعنى الإلياذة — دعونى أكرر — لم تظهر فى نهاية عصر الثقافة اليونانية ، أو حينما بلغت هذه ذروتها ، بل ظهرت فى بدايتها ، بل أكاد أقول قبل أن تبدأ [١٤] . ولذا كان هوميروس حقاً بشير الثقافة اليونانية ، والثقافة الأوربية ، والثقافة الغربية ، وهو بشير يبلغ من الفحولة أنه حتى يومنا هذا لا يزال يطل علينا من عليائه الفنى . أليس ذاك بمعجز ؟ أو هل يستطيع العقل أن يأتى بشىء يعسر تعليله أكثر من ذلك ، أو أكثر إعجازاً من ذلك ؟

الأوديسة : هوميروس الثانى :

أضف إلى ذلك أن المعجزة لم تكن وحيدة . فإن استمرت وقتاً ما فريدة فإنها لم تبق كذلك مدة طويلة . ذلك أنه ظهرت بالتدريج فى سماء الأدب ملحمة ثانية هى الأوديسة . ونستطيع أن نقول فى اطمئنان إنها كملت بعد الإلياذة ، فظهرت بعدها بنحو قرن أو أكثر . غير أن الرواة نسبوا كلتا القصيدتين إلى مؤلف واحد هو هوميروس ، ولكى نوفق بين ما تناقله الرواة وبين ما يمكن أن نستقى من الأدلة الداخلية فإنى أستطيع أن أقترح أن يسمى مؤلف الإلياذة هوميروس الأول وأن يسمى مؤلف الأوديسة هوميروس الثانى . وهذا الاقتراح لا يؤكد الفرق بينهما تأكيداً مطلقاً ، بل إنه لا ينفى الاحتمال البعيد أن هوميروس الثانى ربما هو نفسه هوميروس الأول ، بعد أن بلغ من الكبر عتيًّا [١٥] .

وينبغى أن نذكر هنا عندما نعين تاريخين مختلفين للملحمتين أن أمثال هذه التواريخ يحوطها دائماً شىء من الشك . لأن كلا من القصيدتين يحتوى على قصص وأفكار وتعبيرات أو أبيات محددة تمثل طبقات زمنية متباينة . أى إن كلا من القصيدتين شهد مراحل مختلفة فى طول عملية التجميع والتسوية . ولم تكتمل إحدى القصيدتين فى تاريخ معين . لأنه سواء من ناحية الألفاظ أو المميزات النحوية أو البلاغية أو العروضية يجد الباحث كثيراً من العناصر مشتركاً بين الإلياذة والأوديسة [١٦] ، بل تشترك القصيدتان فى الصفات الأدبية الكبرى على حد سواء ، أى سهولة الفكر والتعبير مع سرعة الانتقال الموضوعى ، بالقياس إلى بطء الملاحم الشرقية وغزارتها البالغة وتعبيراتها المنتفخة .

على أن الفرق بين الإلياذة والأوديسة كبير فى الموضوع والطابع . فالإلياذة قصة حروب على حين أن الأوديسة قصة سلام . من حياة عائلية وتجار ورحالة ومستعمرين ، وهى مليئة بالحب والخيال ، كما هى مليئة بالسحر ، وهى كذلك

تزخر أكثر من الإلياذة بأنغام خرافية وأوتار أخلاقية . إن الوحدة الفنية فى الأوديسة أكثر عمقاً وطابعها أكثر هدوءاً ، فهى نوع من القصة ، وهى الأولى من نوعها فى عالم الأدب[١٧] . فضلا عن أنها تنطوى على مغزى خلقى ، ومصداق ذلك قول جيفر : «من المحال أن تقرأ الأوديسة دون أن تشعر بهدفها التعليمى العامد العام ، مع أن أجزاء كثيرة من القصيدة لا تكشف عن شىء من ذلك . ويتأتى الشعور من النزاع الروحى والتطور الذى يسير موازياً للحوادث فى قصة تليماخوس ، وهو ما يساور الإنسان عبر الدهور ، وهو فى الواقع موضوع هذه الحوادث وأداة ذروتها النهائية»[١٨] . ويوجد بين القصيدتين مرحلة زمنية واضحة انتشرت فيها الثقافة والتحضر والسلم ، ولو أنه ليس من المستطاع تحديد هذه المرحلة ومداها على وجه التأكيد،ومن المحتمل أنها امتدت قرناً أو قرنين ، أو أنها فارق طبيعى بين جيلين متتاليين ، أولهما أكثر حبًّا للحرب وثانيهما أكثر جنوحاً للسلم ، أو فارق بين نضج الشيخوخة وتهور الشباب لتعليل ما بين القصيدتين من تضاد .

وأحسن برهان فى رأيى على قيام مرحلة زمنية طويلة بين الإلياذة والأوديسة أن الإلياذة تذكر البرونز أربع عشرة مرة . لكل مرة يذكر فيها الحديد . أما فى الأوديسة فالبرونز يذكر أربع مرات . لكل مرة يذكر فيها الحديد . هذه حقيقة لها دلالتها . لأن هذا الفارق لا يمكن أن يكون مقصوداً ، إذ ليس من المعقول أن يفكر الشعراء فى هذه النسبة العددية . وإنما يتأثر كل منهم ببيئته التى يعيش فيها ، مع العلم بأن جذور كل من القصيدتين نبتت فى عصر البرونز . ولكن هوميروس الثانى كان أكثر معرفة بالحديد ، وأقل معرفة بالبرونز من هوميروس الأول .

والخلاصة أنه إذا قلنا إن الإلياذة اكتملت حوالى منتصف القرن التاسع ، فمن المستطاع أن نقول أيضاً إن الأوديسة اكتملت بعد ذلك بقرن من الزمان ، ولكن مهما قيل عن هذا الفرض فهو لا يعدو أن يكون حدساً مقبولا . وبعد

إبداء هذا التحفظ سيكون من السهل أن نلتزم نطاق الرواية القديمة ، وأن نتكلم عن « هوميروس » على أنه مؤلف للقصائد الهوميرية بوجه عام . وهذه القصائد ولا سيما الإلياذة والأوديسة حقائق مادية ، ونحن نعنى هاتين الملحمتين عندما نتكلم عن هوميروس .

الروايات الهوميرية القديمة :

لا مفر من غموض أقدم ما نعرف عن الإلياذة والأوديسة ، ومنه أن الشعراء المتجولين والمنشدين حفظوا هاتين القصيدتين من البلى بإنشادهما فى الولائم أو فى الأعياد الدينية ، وأن اسم هوميروس بلغ من الذيوع فى منتصف القرن السادس (حوالى ٥٤٠) مبلغاً جعل أكسينوفانيس من بلدة كولوفون أن يقول : « تعلم الناس جميعاً منذ البداية من هوميروس[١٩] . وفى زمن بندار أى بعد ذلك بنصف قرن تسمى بعض المنشدين بآل هوميروس أو الهوميريين Homēridai[٢٠] . ولكن ليس لزاماً علينا أن نستنتج من ذلك كما فعل الشراح القدماء أن الهوميريين سلالة من صلب هوميروس ، إلا من الناحية الروحية . فالهوميريون كانوا أولئك الذين ساروا على آثار الشعراء المتجولين الأولين ، ولاسيما أعظمهم شهرة وهو هوميروس نفسه . أى إنهم كانوا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى حفظة الروايات التى يتناقلها الناس عن هوميروس . واتسع انتشار النص الرسمى لأشعار هوميروس بين الناس[٢١] ورسخت شهرة هوميروس بين أبناء جنسه فى القرن الخامس . ومن الدليل على ذلك قول أحد أضياف أكسينوفون : « تمنى أبى أن أصبح رجلا فاضلا ، فأمرنى أن أحفظ أشعار هوميروس عن ظهر قلب »[٢٢] . ثم إن أفلاطون كرمه فى النهاية وإن يك على الرغم منه ، وذلك عندما أشار[٢٣] إلى الذين يمدحون هوميروس ويسمونه معلم اليونان ، إذ وصفه هو بأنه أعظم الشعراء وأول كتاب المآسى ، ولو أنه

أخرجه من مدينته . وعلى الرغم من قرار أفلاطون الذى لا يستند إلى أساس يليق بالأحرار بقى هوميروس فى المدينة ، واحتفظ بمكانته فى قلب كل يونانى . أما استحقاقه لقب « معلم اليونان » فيبرهن عليه تاريخ جميع الشعوب التى تتكلم اليونانية إلى يومنا هذا . ولم يتشكك فى ذلك سوى أفلاطون ، ولم يسمح المسيحيون أنفسهم لكراهيتهم للوثنية أن تنقص من إعجابهم به . والواقع أن هوميروس يستأهل لقباً أعظم ، فهو لم يكن معلم اليونان فحسب ، بل هو أحد معلمى الإنسانية . وسنعود مرة ثانية إلى هذه النقطة .

ما الذى علمه هوميروس ؟

ما الذى علمه هوميروس ؟ أول ذلك أنه علم اللغة اليونانية . فمؤلفاته الخالدة ساعدت على توحيد تلك اللغة ، أو بالأحرى أعانت على السمو بها إلى ذاك المستوى من التفوق والمكانة الذى لا تصل لغة إليه إلا عن طريق الخرائط الأدبية . ثم إن أشعاره أصبحت إنجيلا للشعب اليونانى ، واستروح اليونان الاستماع إليها ، وجعلوا منها لأنفسهم ولأبنائهم نماذج للشرف والذوق السليم واللغة الرصينة . وعلى الرغم مما طفح به هذا الإنجيل الهوميرى من قصص وخيال ، فإنه كان كتاباً غير مقدس بعيداً عن أى شىء كهنوتى ، خالياً من الطيرة والسحر إلى درجة تدعو إلى الإعجاب ، وفى هذا ما يبرر القول بأن هذا الشاعر الأيونى أبو العلماء الأيونيين الذين سوف نشرح جهودهم فيما يلى .

ثم إن الإلياذة والأوديسة علمتا التاريخ ، وهذا هو الأمر الثانى ، إذ أوضح هوميروس تاريخ الأصول المينوية والموقينية التى كانت فى بعض نواحيها غامضة بعيدة التاريخ على حين كانت فى نواحيها الأخرى قريبة مألوفة . بفضل ما تداوله الناس من آلات وعادات وكلمات وحكايات شعبية سهلة المعرفة والفهم على مستمعيها . ذلك أن الوظيفة الأساسية للشعر الحماسى هى تسجيل

أحداث الماضى للأجيال التالية والحيلولة دون اندثار هذه الأحداث ، وليس من المستطاع أن نفصل الإشارات التاريخية فى أشعار هوميروس دون أن نكون بذلك قد وضحنا معالم الحضارة الموقينية . ويجد القارئ وصفاً موجزاً بخصائص هذه الحضارة فى الفصل السابق من هذا الكتاب ، فضلا عن مراجع وافية ليتابع دراسته لهذه الحضارة إلى أقصى ما يبتغى من الدراسة . وينبغى أن نشير هنا إلى أن كل كتاب عن الآثار المينوية أو الإيجية ملىء حتما بالإشارات إلى هوميروس . فشعر هوميروس يساعد على شرح الآثار ، وهذه الآثار بدورها تساعد على تفسير هوميروس . وأحدث الشراح الذين نشروا أشعار هوميروس يشيرون على الدوام إلى الآثار الإيجية ، وأول أولئك ولفجانج هيلبج (١٨٨٤) الذى جعل من الآثار وسيلته إلى شرح أشعار هوميروس ثم حذا حذوه آخرون كثيرون (٢٤) .

يعطينا شعر هوميروس صورة للعصر الموقينى وهو فى دور الأفول . أى حين أمسى ذلك العصر لا يذكره بوضوح وبهجة سوى الشيوخ والشعراء المتجولين . ذلك أن قصائد هوميروس اتجهت إلى الماضى ، شأنها فى ذلك شأن كل أشعار الحماسة ، ولذا يبدو متناقضاً بعض الشىء قولنا بأن هذه القصائد كانت بشيرة عصر جديد . إذ هى ذروة أو نهاية أكثر منها بداية ، مع أنها أعطت الأجيال الجديدة — أعنى اليونانيين — أساساً متيناً يشيدون فوقه حضارة جديدة ، وأمدتهم بمستوى أدبى ومرشد سلوكى ، كما منحتهم فخراً وكرامة .

وبتعبير آخر إن إيمانى يزداد يوماً بعد يوم أن الحضارة اليونانية فى زمن هوميروس لم تكن نبتاً جديداً أصيلا ، بل قطفة ثانية من الحضارات الإيجية التى أذبلتها مدة سلسلة من هزات عنيفة كادت تدمرها تدميراً . غير أن الحياة لا تفنى فناءً تاماً مهما طرأ عليها من عوامل الفناء مثال ذلك نمو النباتات وترعرعها فى إقليم دمره ثوران بركانى أو لفحته لفحة طويلة من الجفاف . فربما يظن

الإنسان أن كل هذه النباتات انقرضت . والحقيقة غير ذلك . إذ تظل الحياة نائمة . وربما ظلت كذلك مدة طويلة . ولكن لينزل الغيث ولتهبط الرحمة من السماء ، فتظهر الحياة بسرعة . وكأحسن ما كانت . ومن البديهى أن يضيع الكثير من معالم الحياة فى هذه العملية وأن تختلط عناصر جديدة بعناصر قديمة . ومعنى هذا أن الحضارة اليونانية الجديدة كانت إحياء للحضارة القديمة . وجاء هذا الإحياء وليد فكر عامد بفضل الشعراء المتجولين والمستعمين إليهم . واختلفت هذه الحضارة الجديدة فى نواح عديدة عن الحضارة الإيجية ، لتغير : أحوال الحياة تغييراً عميقاً إذ حل عصر الحديد . وأضحى من المحال لعصر البرونز أن يعود .

الجغرافية :

من المغرى أن نحلل أشعار هوميروس من ناحية كل من العلوم الحديثة فى العصر الحاضر . غير أن هذا يؤدى إلى الإطالة فى غير فائدة كبيرة ، فضلا عن الصعوبة بل الاستحالة فى تحديد أصول المعرفة العلمية فى هذه الأشعار . كم من هذه المعرفة يرجع إلى ما قبل التاريخ ، وكم منها مينوياً قديماً . وكم منها موقينياً . وكم منها يونانياً محدثاً ؟ ولنضرب لذلك مثلا أنه فى العصر الذى نظمت فيه الإلياذة اجتمعت معلومات جغرافية كثيرة بفضل البحارة والمستعمرين من الفينيقيين والإيجيين . وأن معالم البحرين المتوسط والأسود صارت معروفة إلى درجة لا بأس بها . ثم إن بحارة شجعاناً بلغوا شاطئ المحيط الأطلسى . وعادوا بفكرة نهر أقيانوس العظيم الذى يجرى حول قرص الأرض جريا متصلا دون بداية أو نهاية [٢٥] . واختلطت هذه الفكرة بأسطورة أوقيانوس بن السماء (أورانوس) والأرض (جايا) ، وهو الذى تزوج ثيتيس ، وهو أبو الماء من قديم الزمان وكذا جميع الأنهار [٢٦] . وثمة قصة أخرى هى قصة بحارة السفينة « أرجو » الذين أبحروا على ظهر هذه السفينة تحت قيادة

obeikandl.com

ياسون للاستيلاء على الجزة الذهبية فى كولخيس (على الشاطئ الجنوبى الشرقى للبحر الأسود) وهى قصة تخلد ذكرى بعض المغامرين الأولين فى البحار . وأنشد الشعراء المتجولين قصصاً أخرى كثيرة مماثلة تثير الإعجاب دون أن يعنوا بالدقة الجغرافية أو يتجنبوا التناقض الجغرافى . فامتزجت فى قصصهم الجغرافيا بالأساطير ، كما امتزجت الحقائق بالخيال امتزاجاً لا سبيل إلى تمييز أحدهما من الآخر . والواقع أنه من العبث أن نحاول متابعة أسفار أوديسيوس أو تطواف السندباد البحرى فى الأزمنة التالية ، إذ عنى القصاص اليونانيون بالمغامرات والعجائب ، ونسوا الحقائق الجغرافية ، ما عدا حقيقة واحدة غلبت على أذهانهم وهى الرياح الأربع : بورياس وبوروس ونوتوس وزفيروس — وهى تمثل بطريقة بدائية الجهات الأربع الأصلية : الشمال والشرق والجنوب والغرب ، ومن هذه الجهات الأربع الأصلية اثنتان كانتا معروفتين منذ القدم وهما الشرق والغرب ، بسبب شروق الشمس والنجوم وغروبها ، أما الجهتان الأخريان فأوحى بهما انتظام الأجواء فى بحر إيجة . ولذا نستطيع أن نقول بأن البحارة اليونانيين الأولين عرفوا مواقع بلاد البحر المتوسط معرفة جيدة ، ولكنهم لم يمدوا هوميروس بالكثير من هذه المعرفة ، أو أنه لم يهتم هو بها .

الطب والفنون والحرف الأخرى :

أما الذى نجده فى أشعار هوميروس من علم بالطب فلا يعدو مستوى المعرفة المنتظرة بين أناس أذكياء متناحرين ذوى تجربة فى الحروب وجرحاها وطرق علاج الجروح . ومن ذلك أنهم عرفوا كيف يدهنون أجسامهم بالزيت aleiphō lipia أو elaiō lip' ، وأن أرباب البصيرة منهم توافرت لهم الفرص لمعرفة مختلف التأثيرات الناجمة عن جروح معينة ، ومعرفة خواص الإغماء ، وأعراض التشنج الذى يصيب الإنسان عند الاحتضار . وتحتوى الملاحم على أوصاف واضحة كثيرة لمثل هذه الحالات ، وتدل على وجود أطباء محترفين

مرموقين بعين الاعتبار والتقدير – لأن « طبيباً واحداً يعدل رجالا كثيرين آخرين »[٢٧] – ولكنه لم يكن من المستطاع دائماً أن يوجد الطبيب فى ميدان القتال ، فكان على المحاربين أن يساعد بعضهم بعضاً فى أوقات الحاجة . ومع أن معظم الخدمة الطبية كان جراحة . عنى الأطباء بالطب الباطنى عنايتهم بالجراحة ، واستخدموا عقاقير من مختلف الأنواع [٢٨] introi polypharmacoi واشتغلت بعض النساء أيضاً بالأعمال الطبية ، من التمريض وجمع الأعشاب وإعداد العقاقير ، مثل إعداد الشراب المخدر المهدئ pharmacon nēpenthes الذى أخذت هيلانة سر صنعه عن امرأة مصرية [٢٩] . أما الثبت المعروفة باسم المفردات التشريحية الهوميرية فيحتوى على نحو مائة وخمسين كلمة ولا يزال لفظ هوميرى مستعملا فى علم وظائف الأعضاء ، وذلك أن مكان الروح anima, spiritus – thymos psychē عند اليونان فى الحجاب الحاجز (phrenes) ومن هنا جاءت اثنتان من الألفاظ الإنجليزية (phrenetic,) و (phrenology) ! على أنه لا ينبغى قبول هذا التحديد الموضعى على حرفيته ، لأن الكلمتين phrēn و phrenes تدلان فى أشعار هوميروس على أعضاء أخرى ، ولا سيما القلب أو الأجزاء التى حول القلب ، وكذا على مركز العقل [٣٠] . ويوضح ذلك أن اليونانيين الأولين استخدموا لفظ phrēn استخدامنا للفظ قلب حتى الآن ، إذ نقول إذ فلانا « ذو قلب طيب » ونحن نعنى « أنه شفيق »[٣١] . ولهذا لا ينبغى أن نقطع بمعرفة هوميروس بالتشريح إلا بقدر ما نقطع بمعرفته بالجغرافيا .

لم يكن أرباب الحرف وقتذاك وفى أزماننا هذا أناساً على جانب من الثقافة يتقنون صناعة الكلام ؛ بل كانوا صناعاً مهرة – من حدادين وفخارين ونجارين وأساكفة ، ولديهم الكثير من الخبرة والمعرفة بالأدب الشعبى . وعكفت النساء على الغزل والنسيج ، وعرف الزارعون شئون الحيوان والنبات ، وتعلموا استعمال الروث copros فى تسميد حقولهم [٣٢] . وغلب التنقل على أرباب الحرف

(dēmiurgos) من بلد إلى آخر وكذا فعل الكاهن والطبيب (iētēr eacōn) والبناء والشاعر المتجول [٣٣] ، وهذا هو كل ما تدل عليه أشعار هوميروس من المعرفة بالعلوم ، أى أن الأقاصيص الشعبية الموقينية ، مع قليل من الإضافات الجديدة وشىء من الاختلاف .

أما التمرينات البدنية — وهى الألعاب الرياضية والرقص التوقيعى العام وغيره — مما بلغ به اليونانيون فيما بعد إلى أعلى ذروة الإبداع فى أعيادهم الأولمبية [٣٤] ومواسمهم الأخرى ، فمن الواضح أنها كلها من أصل كريتى . ويشير هوميروس إلى المرقص choros « الذى بناه ديدالوس ذات يوم فى مدينة كنسوس الفيحاء لإريادنى ذات الشعر الجميل » [٣٥] . وتصور النقوش الكريتية البارزة كثيراً من هذا الرقص . وأما الآلات الموسيقية فترجع كذلك إلى أصول كريتية .

هوميروس هو أول مرب فى العالم الغربى بفضل المؤلف الفرنسى فينيلون :

كان هوميروس معلم اليونان . هذا قول ينبغى أن يفهم أوسع الفهم ، لأنه يعنى الناحية الإنسانية لا ناحية المعرفة بالعلوم أو الحرف . ويستطيع القائل أن يقول إن هوميروس علم اليونانيين كل شىء أساسى ، وأن يقول كذلك إنه لم يعلم شيئاً . مثال ذلك أنه لم يعلم التاريخ إلا نزراً عن غير قصد ، ولكنه أعطى الناطقين باليونانية مثلا عليا للشرف والعزة والفضيلة والسلوك والشعر ، وإليه يرجع الفضل فى أنهم تزودوا منذ أيامهم الأولى بذخيرة من مقومات الإنسانية ثم إنه أيقظ فيهم الحس الأدبى والفنى ، أو إنه أمدهم بقوة فى هاتين الناحيتين ، وكيفما كان الأمر اتسم ما قام به بوضوح ورزانة عجيبة ، دون تصوف لا تدعو إليه ضرورة ، أو ثرثرة لا طائل تحتها . وبقيت آثار الإلياذة والأوديسة ماثلة فى التربية مثولا متصلا حتى يومنا هذا دون انقطاع يذكر ، بل ليس فى العالم الغربى تراث أقدم منهما أو أكثر استمراراً [٣٦] .

ومنذ العصور القديمة إلى وقتنا هذا تقريباً يعمل المنشدون ورواة القصص

فى مختلف البلاد والعصور ، فنى أوراق البردى [٣٧] وفى الأدب البيزنطى والأدب اليونانى الحديث إشارات إليهم ، كما فى الأقاصيص الشعبية الدائرة على ألسنة الناس فى بلاد اليونان الحالية ، على أن التراث الهوميرى اقتصر أولا على الناطقين باليونانية ، ولذا لم يمتد هذا التراث إلى شعوب غرب أوربا امتداداً كبيراً قبل القرن الرابع عشر الميلادى . والواقع أن هذا الجزء الرئيسى الأساسى من الثقافة اليونانية لم ينتقل إلينا مع علوم اليونان وفلسفتهم عن طريق السريان والعرب [٣٨] . وعندما عملت الكنيسة الكاثوليكية فى عصورها الأولى على إماتة اللغة اليونانية فى غرب أوربا ، بات هوميروس غير معروف إلا قليلا جداً عن طريق الأدب اللاتينى فى العصر الرومانى والاقتباسات اللاتينية الكثيرة من اليونانية فى العصور الوسطى فضلا عن القصائد الشعبية أو القصص العامية [٣٩] ثم وجه إحياء الآداب اليونانية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى أنظار العلماء إلى النص الأصلى لأشعار هوميروس ، حتى إذا صدرت الطبعة الرئيسية princeps التى نشرها ديمتريوس خلقوندیليس (فلورنسة ١٤٨٨) غدا هذا النص ثابت الأركان فى غرب أوربا (شكل ٣٦) ، وعندئذ صار هوميروس أحد معلمى أوربا الغربية فى استمرار غير مقطوع .

ليس من الممكن هنا أن نشرح قصة انتقال هذا التراث الهومیرى إلى غرب أوربا ، لأن أسرع وصف للمعالم الأساسية فى ذلك الموضوع يتطلب مجالا كبيراً ، فضلا عن أن مراحل هذا الوصف السريع سوف تكون تكراراً يدعو إلى الملالة . فلنختر قصة واحدة جديرة بإثارة الاهتمام ، وهى قصة ذائعة بين القراء الفرنسيين ، وإن تك أقل ذيوعاً بين الناطقين بالإنجليزية . وخلاصتها أنه بعد أن عين الملك لويس الرابع عشر القس فينيلون (١٦٥١—١٧٥١) مربياً لحفيده دوق برجندى ، وضع فينيلون هذا لتلميذه القصة التعليمية المسماة مغامرات تيليماك (شكل ٣٧) . ولقى ذلك الكتاب الذى طبع أولا سنة ١٦٩٩ [٤٠] دون ذكر لاسم مؤلفه نجاحاً باهراً ، وطبعت منه طبعات كثيرة فى فرنسا والأراضى

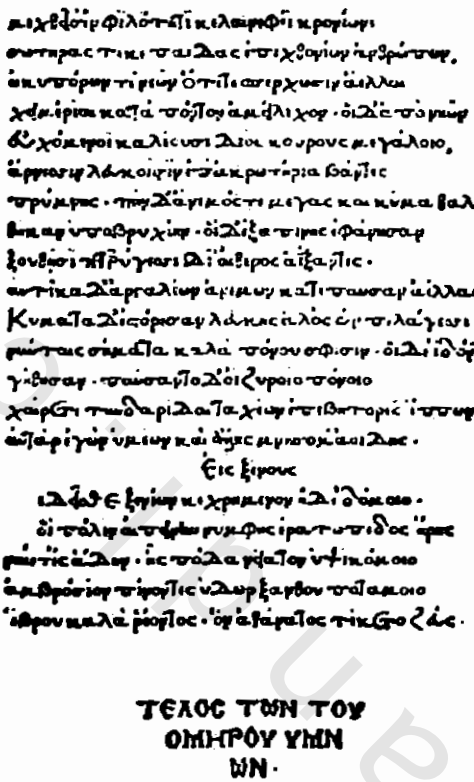

ΤΕΛΟΣ ΤΩΝ ΤΟΥ
ΟΜΗΡΟΥ ΥΜΝ
ΩΝ·

شكل (٣٦) – الطبعة الرئيسية لأشعار هوميروس (فلورنسة ١٤٨٨)
الورقة الأخيرة ص ٤٣٩ ب. من النسخة المحفوظة فى مكتبة بوسطن العامة .

LES AVANTURES
DE
TELEMAQUE
ex libris col. pinhac ...

A PARIS,
Chez la Veuve de CLAUDE BARBIN,
au Palais, sur le second Perron
de la sainte Chapelle.

M. DC. XCIX.

Avec Privilege du Roy

LES AVANTURES
DE
TELEMAQUE

CALIPSO ne pouvoit se consoler du départ d'Ulysse : dans sa douleur elle se trouvoit malheureuse d'être immortelle. Sa grotte ne resonnoit plus du doux chant de sa voix. les Nimphes qui la servoient n'osoient luy parler, elle se promenoit souvent seule sur les gasons fleuris,

شكل (٣٧) — صفحة العنوان وأولى صفحات الطبعة الأولى لمغامرات تيليماك (جزءان ، ١٤٥م فى الطول) . يحتوى الجزء الأول فى آخر صفحة فيه (ص ٢١٦) على الإذن الملكى المؤرخ فى فرساى فى ٦ أبريل ١٦٩٩ من النسخة المحفوظة بمكتبة كلية هارفارد .

الواطئة سنة ظهوره ، ولكنه أثار نقداً كثيراً بين أفراد الحاشية الملكية لما اشتمل عليه من جنوح إلى السخرية والمثالية الخيالية ، و « التحرر » مما أدى إلى فصل مؤلفه عن وظيفته . أما ذيوع هذا الكتاب أول سنة ظهوره فرجعه فى الأكثر إلى الطبعات التى ظهرت فى غير فرنسا ، وكان له أعمق الأثر فى الفكر والأدب فى القرن الثامن عشر وجزء كبير من القرن التاسع عشر الميلادى [٤١] .

الروايات الخرافية :

أحيطت شخصية هوميروس بالخزعبلات من البداية تقريباً ، فلم ينكر اليونانيون الأولون وجوده ، ولكن سبع مدن ادعت بنوته ، وسبع مدن مختلفة

obeikandl.com

كثير جداً لمسقط رأس أى إنسان ، وإن تلك جد قليلة لبطل خرافى . وبعد أن أصبحت أشعار هوميروس على مرّ الأيام أساساً للتعليم حيثما كانت اللغة اليونانية هى السائدة بين الناس كثرت الخرافات حول ناظمها ، وتعددت المدن التى ولد فيها . مثال ذلك : أن هيليودوروس من مدينة حمص (إيميسا) كتب فى شبابه (حوالى ٢٢٠ — ٢٤٠ ق. م.)[٤٢] قصة شهيرة زعم فيها أن هوميروس ولد فى مدينة طيبة بمصر الفرعونية ، وأنه ابن الإله هيرميس (= توت) من زوجة كاهن مصرى[٤٣] . ويتضح لنا من أوراق البردى أن هوميروس كان معروفاً جيد المعرفة فى الأوساط اليونانية فى مصر ، ومن المحتمل أن هيليودوروس الحمصى أخذ قصته عن هوميروس من مصادر مصرية . والواقع أن تصديق كاتب يونانى أصبح فيما بعد أسقفاً فى تساليا لمثل هذه الخرافة يغنى عن مجلدات فى شرح مدى أثر مصر فى الفكر اليونانى ، لأنه إذا كان اليونانيون فى القرن الثالث قبل الميلاد لم يجدوا فى نفوسهم حرجاً أن يصدقوا أن شاعرهم هوميروس معلم بلاد اليونان ، كان مصرياً ، فلا بد أنهم لم يتحرجوا أن يعدوا مصر مهداً لثقافتهم[٤٤] .

ولم تقتصر أمثال هذه المبالغات على العصور القديمة والوسطى فحسب ، بل ظهرت من آن إلى آخر حتى القرن الماضى . وفى المثال التالى ما يدعو إلى تسلية القارئ قدر ما تسليت به نفسى . وخلاصته أن القاضى الهولندى شارلس جوزيف دى جراف (١٧٣٦ — ١٨٠٥) خصص ساعات فراغه من أعمال حياته اليومية الناشطة لدراسة الآثار . وظهرت ثمار هذه الدراسة بعد موته بقليل فى كتاب عنوانه : جمهورية السهول الإيليزية أو العالم القديم (شكل ٣٨)[٤٥] . فى ذلك الكتاب حاول ذلك العالم المدقق — بفضل كتاب تيليماك الذى تقدمت الإشارة إليه وكتاب إتلانتيكا الذى ألفه العالم السويدى أولاوس روديك الأكبر (١٦٣٠ — ١٧٠٢)[٤٦] — أن يعيد تفسير قصة أصولنا الكلاسيكية من أولها إلى آخرها . وكما جهد روديك السويدى أن يجعل هذه الأصول فى السويد ،

فكذلك جهد دى جراف الهولندى وهو يكتب بعد ذلك بقرن -- أن يجعلها فى بلجيكا . ومع شيوع هذا النوع من خطل الرأى . فإن قلة من الناس تستطيع أن تعمل مثلما عمل هذا العالمان بمثل هذا الجهد لإرساء جهود كل منهما فوق مثل هذا الأساس الثقيل . فى رأى دى جراف أن هوميروس كان شاعراً بلجيكياً يتغنى بالبلاد البلجيكية . وكان هذا الرأى فيما يبدو واضحاً تماماً لعينيه ، ولكنه لم يبد بمثل هذا الوضوح لغيره من الباحثين . ولا سيما أولئك الذين لم ينشأوا فى أحضان بلاد فلاندرز الجميلة .

وولف وشليمان :

نستطيع بعد هذا الفاصل الوجيز أن نعود هنيهة إلى الصعوبات المتنية ومناقشاتها التى استمرت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بين العلماء من مختلف البلاد . ونتيجة لما تدرج فيه أولئك العلماء من مرانة تزداد صرامة جيلا بعد جيل . أصبحت مناقشاتهم تدريجياً كذلك أشد نقداً وأكثر صرامة . وبلغت بهذه الجهود الطويلة ذروتها فى كتاب : مقدمة لدراسة هوميروس تأليف فردريك أوجست وولف (١٧٩٥ م) . (شكل ٣٩) [٤٧] . الذى افتتح به الدور الحديث من « مشكلة هوميروس » . أى سلسلة الشكوك فى وجود هوميروس و وحدة الإلياذة والأوديسة . مما أشرنا إليه فيما سبق ، حيث أدلينا فيه برأى متواضع .

وأود هنا أن أفرد بالذكر من بين المؤلفات العديدة الخاصة بهذا الموضوع كتاباً بالذات يتأفف منه الباحث فى فقه اللغات القديمة . وهو كتاب « مؤلفة الإلياذة » الذى كتبه صمويل بتلر (١٨٣٥ — ١٩٠٢) . وهو أحد كبار المؤلفين من الإنجليز . ومؤلف قصة إيريهون . وقصة مصير البشر . ونشر صمويل بتلر هذا الكتاب أواخر حياته (١٨٩٧ م) (شكل ٤٠) وحاول فيه أن يدلل على أن الأوديسة كتبتها امرأة من مدينة ترابانى فى جزيرة صقلية !

RÉPUBLIQUE
DES CHAMPS ÉLYSÉES,
ou *MONDE ANCIEN*,

Ouvrage dans lequel on démontre principalement :

Que les Champs élysées et l'Enfer des Anciens sont le nom d'une ancienne République d'hommes justes et religieux, située à l'extremité septentrionale de la Gaule, et surtout dans les Iles du Bas-Rhin ;

Que cet Enfer a été le premier sanctuaire de l'initiation aux mystères, et qu'Ulysse y a été initié ;

Que la déesse Circé est l'emblême de l'Eglise élysienne ;

Que l'Elysée est le berceau des Arts, des Sciences et de la Mythologie ;

Que les Elysiens, nommés aussi, sous d'autres rapports, Atlantes, Hyperboréens, Cimmériens, &c., ont civilisé les anciens peuples, y compris les Egyptiens et les Grecs ;

Que les Dieux de la Fable ne sont que les emblêmes des institutions sociales de l'Elysée ;

Que la Voûte céleste est le tableau de ces institutions et de la philosophie des Législateurs Atlantes ;

Que l'Aigle céleste est l'emblême des Fondateurs de la Nation gauloise ;

Que les poëtes Homère et Hésiode sont originaires de la Belgique, &c.

OUVRAGE POSTHUME

De M. CHARLES-JOSEPH DE GRAVE, *ancien Conseiller du Conseil en Flandres, Membre du Conseil des Anciens, &c.*

Veterum volvens monumenta Deorum,
ô Patria! ô divum Genus!

TOME 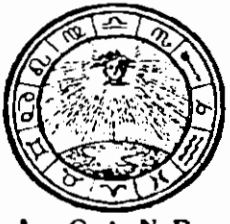 PREMIER.

A GAND,
De l'Imprimerie de P.-F. DE GOESIN-VERHAEGHE,
rue Hauteporte, N°. 229.

1806.

شكل (٣٨) – صحيفة العنوان فى المجلد الأول من كتاب دى حراف : جمهورية السهول الإيليزية (ثلاثة مجلدات ، غنت ١٨٠٦) .

PROLEGOMENA
AD
HOMERUM
SIVE
DE
OPERUM HOMERICORUM
PRISCA ET GENUINA FORMA
VARIISQUE MUTATIONIBUS
ET
PROBABILI RATIONE EMENDANDI
SCRIPSIT
FRID AUG WOLFIUS
VOLUMEN I
HALIS SAXONUM,

شكل (٣٩)

شكل (٣٩) صفحة العنوان فى المجلد الأول من مقدمة وولف Prolegomena عن النسخة المهداة (Halle a.d. Saale, 1795). لجامعة هارفارد من ف . ا . وولف فى ٢١ أبريل عام ١٨١٧ . أى بعد نشرها بنحو ٢٢ سنة وقبل أن يموت بقليل ، إذ مات عام ١٨٢٤ .

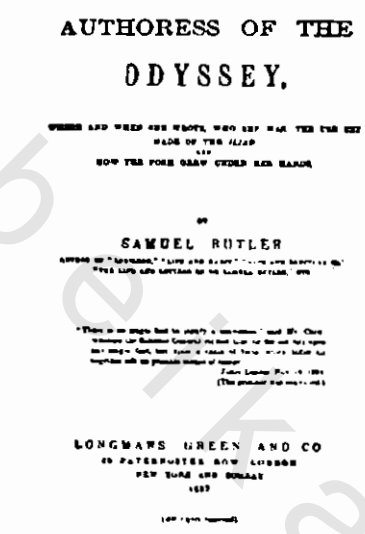
THE
AUTHORESS OF THE
ODYSSEY,
SAMUEL BUTLER
LONGMANS GREEN AND CO
39 PATERNOSTER ROW LONDON
NEW YORK AND BOMBAY

(شكل ٤٠)

شكل (٤٠) صفحة العنوان فى كتاب مؤلفة الأوديسة لصمويل بتلر المطبوع عام ١٨٩٧. عن مكتبة كلية هارفارد .

أى أن هوميروس الثانى كان — بالتأكيد — امرأة . وليس فى أدلة صمويل بتلر ما هو مقنع ، ما عدا الأدلة العامة منها ، وهذه يؤيدها شعور كل قارئ بصير ، وهو أن جو الأوديسة الأدبى أهدأ وأقرب إلى الحياة العائلية ، بل دعنا نقل أكثر أنوثة ، من جو الإلياذة . ولم يستطع بتلر أن يدلل على أكثر من ذلك ، وهذا كله واضح كل الوضوح .

ومرجع ذلك أن صمويل بتلر كان هاوياً ذا عبقرية هوائية يدرس أشعار هوميروس لغرامه بدرسها ، لا لشىء آخر ، كما فعل كثيرون من الإنجليز وما زالوا حتى العصر الحاضر . وتطلب صمويل بتلر من ذلك ترويحاً عن نفسه وتهذيباً لروحه . على حين كان علماء فقه اللغة اليونانية فى مختلف البلاد يعملون

بما أوتوا من علم غزير ومقدرة ذهنية فحلة. فى بحث النصوص الهوميرية سطراً. سطراً. وكلمة كلمة : يحللونها ، ويرتبونها . ويبوبونها . ويقلبونها على كل وجه ونهج مستطاع . وبينما هم فى شغل شاغل على النحو السابق . ينافس بعضهم بعضاً . ويتنازعون غالباً حول هذه الكلمة أو تلك . دارت برأس أحد رجال الأعمال المتقاعدين — أعنى من الدخلاء — فكرة بسيطة هى أن يقابل بين كلمات هوميروس وبين الآثار . وكان علماء فقه اللغة يعملون ليلا ونهاراً فى مكتباتهم . تحيط بهم المعاجم والطبعات والشروح والمذكرات التى خلفها أسلافهم وظلت فى زوايا النسيان حتى علاها التراب . ولم يكن من نهاية لبحوث أولئك العلماء الذين عكفوا على عملهم غالباً فى حرارة ، وأحسوا بأن وقتهم ثمين . فلم يكن لديهم متسع للمغامرة أو رغبة فى السفر والتنقل بين مظان البلاد التى تصفها أو تشير إليها الأشعار الهوميرية . وتساءل أولئك العلماء فضلا عن ذلك . ألم يكن هوميروس نظام قصص ؟ هل هناك أدنى أمل فى العثور على الآثار للآلهة والأبطال الأقدمين ؟ غير أن هينرش شليمان (١٨٢٢ — ١٨٩٠ م) اعتقد أن هذه الآثار موجودة ، وكان مرجع هذا الاعتقاد جهله [٤٨] وبساطته وحماسته وإيمانه . بل بلغ به هذا الاعتقاد مبلغ اليقين . حتى إنه أعلن استعداده بأن يقامر بأمواله وحياته للتدليل على صحته ، إذ تراءى له أن أشعار هوميروس لم تنسج من الهواء . وأن لها لا بد أساساً من الواقع . إنه سوف يذهب ليكشف عن ذلك الأساس . وزار شليمان بلاد اليونان وطروادة لأول مرة عام ١٨٦٨ م . وبدأ حفرياته فى إتاكا تلك السنة . وصرف معظم السنوات العشرين التالية على الحفر فى طروادة وموقناى وأرخومينوس وتيرنس . وهو الرائد الأول حقاً فى ميدان علم الآثار اليونانية فيما قبل التاريخ . لأنه أول من قام بالحفر فى شىء من الترتيب والنظام . ومع ما طرأ على طرق شليمان من تحسينات كثيرة . فلا يزال هو المؤسس لهذا النوع من البحوث [٤٩] . وأول من أدخل تحسينات على طرقه هو مساعده وخليفته وهيلم دربفلد (١٨٥٣ — ١٩٤٠) .

والخلاصة أنه كما بدأ وولف عهداً جديداً فى البحوث اللغوية ، فكذلك بدأ شليمان عهداً جديداً فى التفسير بوساطة الآثار ، وجعل من المستطاع شرح أشعار هوميروس شرحاً جديداً كمرآة للعصر الموقينى . على أن هذا لم يؤثر فى استجلاء مشكلة من المشاكل الهوميرية ، وهى التى تساور الباحث العادى أكثر من غيرها — أى معرفة من هوميروس . ولكنه من ناحية أكثر عمقاً بعث شخصية هوميروس (Homeros anestes) على أنه المؤلف أو الناشر لأشعار تشيد بفجر الثقافة اليونانية . ومع هذا لن نعرف حقيقة هذا المؤلف (أو المؤلفين الاثنين أو الأكثر عدداً) . ولا يعنينا ذلك فى كثير ، فلدينا القصيدتان الإلياذة والأوديسية كاملتان فيما يبدو . وهاتان القصيدتان كنزان خالدان لا تستطيع قيمتهما إلا أن تزيد وتنمو فى المستقبل .

هسيودوس :

دلل الكاتب شادويك وزوجته فى مؤلفهما الباهر الذى عنوانه : نمو الأدب ، أن الأدب القديم فى أمم عديدة لا يهتم بالأقصوصة والخرافة فحسب ، بل يمتد كذلك إلى موضوعات أخرى . فالإلياذة والأوديسية هما المثالان البارزان للشعر الحماسى فى الأدب العالمى . ولكن أوائل الشعراء المتجولين اليونانيين كانوا ينشدون من حين إلى آخر قصائد فى موضوعات أخرى غرضها التعليم أو ضرب الأمثال (الأقوال الحكيمة والألغار) أو الكهانة (العرافة والأخبار بالغيب) . ولا غرابة فى ذلك ، وإلا فما معنى وجود الشعراء المتجولين ، ولم نجدهم فى جميع بقاع الأرض ؟ السبب بسيط وهو أن الناس تشوفوا دائماً أن يكونوا على شىء من المعرفة ، من نوع أو من آخر . ولم تكن أخبار الأفراد أو العائلات أو القبائل مما يملأ العين لدى أذكيائهم طويلا ، بل رغبوا فى أن يتسع أفقهم . ولم يستطيعوا إلا أن يسألوا أنفسهم أسئلة مثيرة كثيرة . « لماذا يفعلون ما يفعلون؟ » « من أين أتوا وإلى أين هم صائرون ؟ » « لماذا يحيون ؟ » « لماذا يكون هذا العالم

على ما هو عليه من الأحوال ؟ » وهذه الأسئلة وأمثالها تولد الأساطير والكونيات ، وهى كذلك تخلق العلوم . وتاريخ العلوم إن هو فى الأكثر إلا تاريخ الأجوبة المتلاحقة التى جاءت بها القرائح للرد على هذه الأسئلة .

واكتفى الناس فى تطلعهم إلى معرفة الوقائع التاريخية بالأساطير التى بعثت فيهم وعيًا بتراثهم وقوميتهم وعلمهم بمقومات الإنسانية وشرفهم . وهذا حسن لولا أنه ترك أسئلة هامة كثيرة دون إجابة ، لا الأسئلة العويصة التى أشرنا إليها فيما سبق فحسب ، بل أسئلة أكثر سهولة وبساطة وأكثر ارتباطًا بالحياة العملية والحاجة . مثال ذلك أن حاجة الزارع إلى المعلومات الخاصة بالزراعة متعددة النواحى ، وهذا القول نفسه منطبق على التجار والصناع . ثم إن الناس جميعًا فى حاجة إلى هداية خلقية واجتماعية . مثلما يأتى إليهم عن طريق الأمثال السائرة ، فكل مثل سائر[٥٠] قطعة من حكمة شعبية بالغة المستوى معروفة الأصل ثابتة الصلاحية للذيوع والانتشار ، مثال ذلك قولنا : « من زرع شرًّا حصد شرًّا أكبر » [٥١] فهذا قول سهل الحفظ والوعى ، ولا سيما إذا جاء فى عبارة موزونة أو صيغة مسجوعة قافيتها ، أو متماثلة حروفها الأولى ، وهو أيضًا سهل الترديد فإذا ساقه قائل على سبيل الحكمة فى دائرة أسرته أو فى السوق العامة حظى بقسط شخصى من الثناء على حكمة قبيلته كلها (فهو يستحق هذا الثناء لأنه يساعد على حفظ تلك الحكمة وعلى تعليمها) .

وارتبطت أحسن الأشعار التعليمية اليونانية باسم هسيودوس الذى عاش بعد هوميروس بزمن قليل ، ولعل هذا هو سبب وضوح شخصيته أكثر من شخصية سلفه . وهسيودوس أول شاعر يونانى استعمل ضمير المتكلم وأفصح عن عزمه تبليغ رسالة شخصية : وهى « أن يخبر عن الأشياء الحقيقية » [٥٢] . وهسيودوس مثل سلفه هوميروس أصله من الساحل الآسيوى . مع احتمال أن هوميروس من أبناء إيونيا ، على حين أن والد هسيودوس سكن مدينة كومى وهى ميناء فى إيوليس (إلى الشمال من إيونيا) ثم حمل الفقر والده أن يرحل عن كومى ،

وأن يبحث عن حظه فى بلد آخر ، فعبر البحر الإيجى واستقر فى مدينة أسكرا من أعمال بيوتيا على ساحل بلاد اليونان نفسها . ومن المحتمل أن ابنيه : هسيودوس وبرسيس ولدا فى هذا الموطن الجديد، حيث لاريب كانت نشأتهما . واشتغل الأخوان كأبيهما بالزراعة . لكن شاءت الأقدار أن تختار لهما غير ذلك ، إذ غدا برسيس لكعًا لا خير فيه . على حين لم يقنع هسيودوس بعمله فى الزراعة، بل عكف على نظم الأشعار والإنشاد والوعظ استجابة لنداء الفن . وفى أواخر حياته رحل هسيودوس إلى بلدة أوينوى فى إقليم لوكريس ، حيث مات قتيلا (٥٣) .

ومن الواضح أن لا مجال للشك فى شخصية الشاعر هسيودوس ، ونستطيع أن نفترض أنه عاش بعد هوميروس الثانى بزمن قليل ، أعنى حول نهاية القرن الثامن . وأنه من أهل بيوتيا . ولعل هذا هو سر الفجاجة التى نقابلها فى بعض شعره بالقياس إلى شعر هوميروس (٥٤) . والقصيدتان الأساسيتان اللتان تنتسبان إليه والباقيتان إلى وقتنا هذا ، أعنى « الأعمال والأيام » و « أصل الآلهة » مقالان ممتازان فى بابهما . ولكن ينبغى أن نلحظ أن كلتيهما قصير نسبيًا : ٨٢٨ بيتاً و١٠٢٢ بيتًا . ولا غرابة فى ذلك ، فالشعر الذى يستهدف التعليم وضرب الأمثال لا مجال فيه للإطالة والاستطراد ، وهو ما اتسع له أسلوب الإلياذة القصصى . ذلك أن القصاص يدركون تمام الإدراك أن المستمعين يتوقون إلى الإسهاب فى القصص (مثال ذلك : وصف المعارك والولائم) وإلى الترديد المثير . وأنهم يحبون أن تمتد الحكايات الدرامية امتداداً مثيراً لمستزيد ، وعلى العكس من ذلك أهل الزراعة الذين يريدون النصيحة الموجزة ، فتكون الأمثال التى يتراءى فيها أدبهم الشعبى مختصرة نافعة .

قصيدة الأعمال والأيام تأليف هسيودوس :

تنقسم قصيدة الأعمال والأيام Erga cai hēmerai (شكل ٤١) التى ألفها هسيودوس إلى أربعة أقسام : (١) عظة لأخيه الأصغر برسيس ،

(٢) مجموعة من القواعد الزراعية والملاحية . (٣) مبادئ أخلاقية ودينية ، (٤) تقويم للأيام السعيدة والمشئومة . ويحتوى القسم الأول من هذه الأقسام على قصص رمزية وحكايات تشرح أحوال الناس وقيم الطيبة القلبية ، وفى الحكاية الأولى من هذه القصص الرمزية قارن هسيودوس بين التنافس النافع وبين التناحر الصاخب . وتأتى بعدها قصة باندورا التى تبين أصل الشر ، وأنه لا فرار من الكدح والعمل (قارن الحكاية التى توجد فى سفر التكوين والتى لها عين المغزى) ، كما توضح حكاية (ainos) الصقر والبلبل شرور القسوة والظلم . وأكثر ما يسترعى انتباهنا من هذه القصص كلها قصة العصور الخمسة للعالم [٥٥] وهى : عصر الذهب أى عصر السلام والكمال ، وعصر الفضة وهو أقل من عصر الذهب صفاء ونبلا ، وعصر البرونز وهو العصر الرابع الذى يشير على ما يظهر إلى النهضة المينوية التى ألهمت ذكراها المجيدة أشعار هوميروس ، وأخيراً عصر الحديد ، وهو العصر الحالى ، عصر الحزن والبغضاء والتناحر ، ويبدو من ذلك أن هسيودوس عاش فى عصر يشبه عصرنا الحاضر ، إذ تأمل المفكرون ألوان الدمار والشقاء والفوضى التى تعقب الحروب والانحطاط الخلقى . ومالوا فى كثير من خيبة الأمل إلى القول : « بأن الدنيا تصير كل يوم من سيىء إلى أسوأ ، وأنها تسعى حتما إلى نهاية » . وهذا النوع من التشاؤم الاجتماعى يطن فى آذاننا كآبة من مظاهر عصرنا الحاضر ، لأن بعض مواطنينا فى حالة تشاؤمية مماثلة . على أن أشباها مقاربة لهذا النوع حدثت فى أزمنة أكثر قدمًا ، مثل أزمنة النشيد السومرى الذى أشرنا إليه فيما سبق فالفكرة القائلة بأن كل شىء ينحدر من سيىء إلى أسوأ وأن « العالم صائر إلى الشيطان » متواترة فى كل الأزمنة ، أو بالأحرى هى فكرة لا بد أن تعود إلى الظهور كلما اضطرب الميزان الاجتماعى اضطرابًا عنيفًا بسبب الحروب أو الثورات أو النوازل الأخرى . وتنطبع هذه الفكرة فى ذهن رجل يسير جسمه وعقله تدريجًا إلى الانحلال . أو ينقصه الصبر على التحرر التدريجى والعناد (الظاهر أو الخفى) الذى يمشى عليه الجيل الجديد ، وذلك بغض النظر عن وقوع

ΗCΙΟΔΟΥ ΤΟΥ ΑCΚΡΑΙΟΥ ΕΡΓΑ
ΚΑΙ ΗΜΕΡΑΙ·

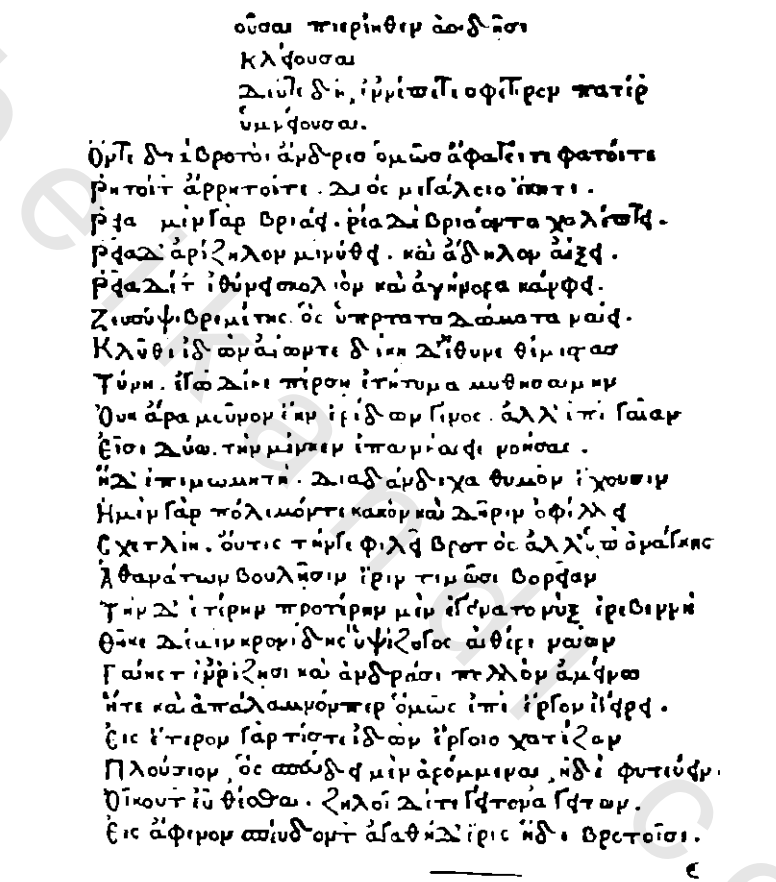

شكل (٤١) – الطبعة الأولى Princeps للأعمال والأيام مع رعويات ثيوكريتوس (ميلان حوالى ١٤٨٠)، عنوان الأعمال والأيام ورقة ٣٣ أ. من النسخة المحفوظة بمكتبة هنتنجتون

الحروب أو الثورات.

ومن الواضح أن هسيودوس نظم قصيدته هذه بسبب عدم انقياد أخيه وجهله، وأنه أراد بها أن يثقفه وأن يخجله كى يسير فى طريق الأخلاق الحميدة، وأن

يرفع من روحه المعنوية . (ومن المحتمل أن جهوده ذهبت عبثًا). فالجزء الأول من قصيدته تقدمة ميثولوجية الغرض منها أن يبعث فى قلب برسيس حب التقاليد والرغبة فى العدالة وأن يعمل كأى إنسان . أما الأجزاء الأخرى فلا تحتاج إلى شرح طويل ، فقواعد الفلاحة والملاحة [٥٦] قراءتها أسهل من تحليلها . فلنقتطف منها أبياتًا قليلة ، ولنبدأ بالأبيات الافتتاحية .

وعندما تطلع الثريا ، بنات أطلس فى السماء ، ابدأ موسم حصادك . وابدأ الحرث عندما يملن إلى الغروب. إنهن يختفين أربعين يومًا وليلة ويظهرن مرة أخرى عندما تدور السنة دورتها ، أى عندما تشحذ منجلك لأول مرة . هذا هو ناموس السهول ، وناموس الذين يعيشون بالقرب من البحر ، والذين يسكنون إلى الأرض الخصيبة ، من الوديان الصغيرة ، والوهاد الخضراء بعيداً عن أمواج البحر ، — واخلع ملابسك عندما تبذر ، وعندما تحرث ، وعندما تحصد إن كنت تبغى أن تحمل إلى دارك كل ثمار ديميثير فى الوقت الملائم وأن ينمو كل صنف فى حينه ، وإلا فربما تصبح فيما بعد فقيراً محتاجًا تذهب إلى بيوت الآخرين تسألهم إحسانًا ، ولكن دون جدوى كما جئت إلى سابقًا . إنى لن أعطيك أكثر مما أعطيت ولن أكيل لك قدراً آخر . أيها الجاهل برسيس . اعمل العمل الذى كتبه الآلهة على الناس ، لئلا تضطر أنت وزوجك وأطفالك إلى البحث عن طعامك عند جيرانك وفى قلبك لوعة ، وهم لا يعيرونك التفاتًا . ومن المحتمل أن تنجح معهم مرتين أ ثلاث مرات ولكن إن ثقلت عليهم أكثر من ذلك فلن ينجح مسعاك . وسيذهب كلامك كله سدى وسوف لا يكون لتلاعبك بالألفاظ من فائدة . أجل إنى آمرك أن تجد وسيلة لأداء ديونك والابتعاد عن المسغبة .

ثم ما يأتى :

ولكن عندما تظهر أزهار الخرشوف ويجلس الصرصور يترنم فوق شجرة ويرسل أغانيه باستمرار من تحت جناحيه فى فصل الحر المرهق ، حينئذ تكون المعزى

أسمن ، والنبيذ أحلى ، والنساء أشبق ، ولكن الرجال أضعف لأن نجمة الشعرى تجفف الرأس والركبتين وتضمر الجلد بتأثير الحر . دعنى عند ذاك آوى إلى صخر ظليلة واسقنى من نبيذ ببليس وأعطنى جبنا ولبنا من عنز جف ضرعها ، مع شريحة لحم من عجلة شابة مرعاها الغابة ، ولحم جدى رضيع ، دعنى أيضًا عند ذاك أجلس فى الظل وأشرب النبيذ الصافى ، حتى إذا أخذت حاجتى من الطعام حولت رأسى نحو نسيم الشمال البليل وصببت من الينبوع الذى يجرى ماؤه نقيًا قرباناً من الماء ثلاث مرات ، ثم صببت الرابعة قربانًا من النبيذ [٥٧] .

من الواضح أن هذا كله ليس من روح إقليم بيوتيا ، إذ كان هدف هسيودوس المباشر أن يشرح لأخيه كيف يجنى ربحًا من عمله وكيف ينجو من الفقر ، لكن غلبته الشاعرية الكامنة فى موضوعه أو بعبارة أخرى تغلبت العبقرية الشاعرية على الأغراض العملية الوعظية من قصيدته . وهزت مشاعره المناظر الخلابة التى أحاطت به فرفعته هنيهة إلى مستوى أعلى ، وهو بذلك رائد الشعراء الرعاة الذين ظهروا فيما بعد [٥٨] .

وكان من المقبول المسلم به حتى عام ١٩٥١ أن قصيدة الأعمال والأيام التى نظمها هسيودوس أول مثل من أمثلة التقويم الزراعى فى الشعر . لكن هذا ليس يعد صحيحًا لأن صمويل نوح كرامر مدير المتحف الجامعى التابع لجامعة بنسلفانيا كشف فى نيبور لوحة مسمارية سومرية يرجع تاريخها إلى حوالى ١٧٠٠ وفك رموزها فإذا هى تبدأ بما يأتى : « فى سالف الأيام أعطى مزارع ابنه هذه التعليمات » ، وهى تحتوى على ١٠٨ أسطر وتشرح أعمال المزارع طول العام . ونشر كرامر لهذه اللوحة . ترجمة مبدئية عنوانها : التقويم الزراعى السومرى [٥٩] وأرجو من القارئ هنا أن يلاحظ أن الفلاح السومرى المجهول الذى كتب هذا النص أو أوحى به عاش قبل هسيودوس بنحو ألف سنة .

نعود إلى هسيودوس فنقول إن القسمين الأخيرين من قصيدته قصيران جدًا (٧٠ بيتًا و ٦٤ بيتًا) . أما القسم الثالث فيحتوى على نصائح مألوفة فى

الزواج والسلوك الحسن فى مختلف الأحوال . وبعض هذه النصائح يبدو تافهاً للغاية (آداب التبول omichein)[٦٠] وهذا القسم يضم خزعبلات تهم علماء الأساطير مما لا يتسع المجال هنا للإفاضة فيها . وأما المبادئ التى يحتوى عليها القسم الرابع ، وهى التى تمس الأيام السعيدة والمشئومة ، فكلها أوهام طبعاً . ولكن ينبغى أن نذكر أن أوهاماً مشابهة تحكمت فى أعمال المزارعين حتى أمس القريب ، وأنها ما زالت تقوده فى بلاد كثيرة حتى العصر الحاضر ، وأن بيننا نحن أناساً يزعمون أنهم عقلياً متحررون . وهم يخشون « يوم الجمعة الثالث عشر» . أما قصيدة هسيودوس فتنتهى بهذه الأبيات :

« هذه الأيام نعمة كبرى على الناس على وجه الأرض ، لكن بقية الأيام متغيرة مشئومة لا تأتى بخير . ويختلف الناس فى مدح هذا اليوم أو ذاك ، لكن قليلين يعرفون طبائعهم . فاليوم فى بعض الأحيان زوجة أب ، وفى البعض الآخر أم رؤوم ، والرجل السعيد الموفور الحظ فى هذه الأيام هو الذى يعرف هذه الأشياء ويقوم على عمله دون أن يغضب الآلهة الخالدين ، ويعرف زجر الطير ، ويبتعد عن تعدى الحدود »[٦١] .

ومن هذه العبارات يتضح أن المزارع فى عصر هسيودوس أحس بكثير من الأسرار التى استغلقت عليه وأحاطت به وهددت كيانه ، وأيقن أنه تحت رحمة العناصر الطبيعية والحظ كل يوم من الأيام ، فلم يكن يكفيه أن يبذل جهده فى عمله ، بل عليه أن يتواضع وأن يخشى كل خاشية .

ومن مؤلفات هسيودوس التى ضاعت قصيدة فى علم الفلك لم يبق منها إلا قطع قليلة ، وهى تصف أهم المجموعات النجمية وتشرح أصول أسمائها ، أعنى الأساطير الخاصة بها . وتذكر هذه القطع القليلة التى وصلت إلينا نجوم الثريا والتوابع والدب الأكبر ، والجوزاء ، وهى أقدم نصوص من نوعها فى الأدب اليونانى .

قصيدة أصل الآلهة . هسيودوس الثانى :

أما القصيدة الأخرى التى وصلت إلينا ، أعنى أصل الآلهة (ثيوجونيا) فهى ملخص للميثولوجيا ، أى تاريخ الآلهة وأنسابهم . مما لا نقف عنده طويلا . وأتبعها هسيودوس فى الأصل بقصيدة أخرى تحتوى على قائمة بالنساء والشبيهات eoiai ، أى قائمة ببطلات كان الشاعر المتجول يقدم كلا منهن بعبارة e hoie ومعناها مثلها . وهؤلاء النساء هن الواسطة الطبيعية بين عالم الآلهة وعالم البشر ، لأن الأبطال الذين كانوا يعدون من نسل الآلهة جاءوا إلى هذه الحياة من أمهات من البشر . ولذا كان من الضرورى بعد أن أوضح هسيودوس أنساب الآلهة أن يتحدث عن النساء اللائى أحبهن الآلهة وأنجبوا منهن الأبطال قادة الناس فى هذا العالم . وهذا النوع من التفكير يساعد على تعليل رياسة الأمم فى المجتمع البدائى ، على أنه ينبغى أن أترك هذا الموضوع للباحثين فى علم الإنسان .

وفى نظر أى رجل يتأثر بالميثولوجيا (وهذا وصف ينطبق على كل يونانى) يتصل ميدان أنساب الآلهة بميدان علم الكون ، لأن أصل الآلهة وأصل العالم وعملية الخلق جملة وتفصيلاً ممتزجة على نحو لا يمكن فصمه . ويوضح ذلك قول هسيودوس كيف أتيح له أن يحيط بالأسرار الخفية التى يفصح عنها ، إذ ينبئنا فى المقدمة [٦٢] أن بنات زيوس العظيم « قطعن عوداً وأعطينه لى ، غصنًا متينًا من الزيتون ، غصنًا عجيبًا ، ثم نفثن فىَّ صوتًا قدسيًّا لأشيد بالأشياء التى ستأتى ، وبالأشياء التى مضت فى سالف الزمان » [٦٣] . وكان وضع الماضى المجهول على قدم المساواة مع المستقبل أمراً طبيعيًّا فى شعر هسيودوس ، فالعراف الصادق مثل ثيستور بن كالخاس [٦٤] يعرف « الحال والمستقبل والماضى » . والآلهة الأزليون لا يشعرون بالزمن . ونذكر هنا كذلك أن إيزيس تقول عن نفسها فى النقش الذى يوجد على معبدها فى صا الحجر (سايس) : « أنا كل شىء كان فى الوجود ، وكل شىء موجود الآن ، وكل شىء يوجد مستقبلا على

الإطلاق ، ولم يكشف عنى بشرقط » [٦٥] .

ويتفق علماء فقه اللغة على أن القصيدتين الأساسيتين من أشعار هسيودوس يرجع تاريخهما إلى ما بعد هوميروس ، على الرغم من أن كلا منها تحوى عناصر هى ، أوربما تكون ، معادلة فى القدم لأى شىء موجود فى الأوديسية ، وحتى فى الإلياذة . وهم يميلون إلى وضع قصيدة أصل الآلهة إلى زمن لا حق يحتمل أن يكون نحو قرن من الزمان ، بعد قصيدة الأعمال والأيام . وعلى هذا الفرض ترجع قصيدة أصل الآلهة إلى مؤلف آخر نستطيع أن نسميه هسيودوس الثانى [٦٦] .

أسلوب هسيودوس ورواية أخباره وأشعاره :

على الرغم من أن قصيدة الأعمال والأيام تحتوى على أبيات جميلة فأسلوب هسيودوس أقل فى الجودة عادة من أسلوب هوميروس . وربما كان مرجع هذا أن الموضوع لا يسلس للجمال الشعرى . وربما أن سببه هو الإعجاب المتناهى بعظمة هوميروس والنجاح الذى ناله بين الشعب . ومن المعقول أن نتصور أن شهرة الإلياذة والأوديسية (عندما بلغت هاتان الملحمتان أوج كمالهما) أعجزت الشعراء الآخرين ، ومنهم هسيودوس ، عن الوصول إلى مثل هذه الشهرة ، كما حدث عندما ضرب ميخائيل إنجلو ورفائيل حولهما فضاء من الفن لم يستطع أحد من الفنانين اللاحقين أن يقترب منه .

أما النقد الرئيسى الذى يستطيع الباحث أن يوجهه إلى هسيودوس فهو أنه لا يلحق بهوميروس فى السرعة والسلاسة ، وأن كثيراً من أبياته يتلو بعضها فى توقف ونغم مرتفع متقطع . وربما كان هذا فى كثير من الأحيان أمراً لا يمكن تلافيه . وإنى أشعر باحترام للمؤلف الذى يثب على الفور من فكرة إلى فكرة أخرى إذا لم تكن هناك رابطة حقيقية بين الفكرتين أعظم من احترامى للمؤلف الذى يخلق انتقالات غير طبيعية فى كثير من الصعوبة . فأسلوب هسيودوس مألوف طبيعى ، ولكنه ممتع ، ومزاجه صارم لا رومانتيكية فيه . ولكن ماذا

تريد ؟ كان هسيودوس مربياً ومعلماً بمعنى أكثر حرفية من هوميروس . إن الناس لم يقبلوا عليه بمثل الرغبة التى أقبلوا بها على المنشد الذى اكتسب إذ ذاك عظمة الأبطال .

لا عجب إذاً أن كانت رواية أشعار هسيودوس وأخباره أقل جاذبية وانتشاراً من أشعار هوميروس وأخباره . وفى العصر الحاضر يعرف مائة من الناس أشعار هوميروس ، مقابل فرد واحد يعرف أشعار هسيودوس . وأكبر ظنى هكذا كانت الحال دائماً . على أنه يبدو أن قصيدته الثانية أى قصيدة أصل الآلهة ، كانت أول ما استرعى الالتفات ، إذ شرحها زينون مؤسس الفلسفة الرواقية ، وهو من مدينة إكتيوم (٤ — ٢ ق . م .) . وقام على نشرها زينودوتس من مدينة إفسوس (٣ — ١ ق . م .) ، وأرستوفانيس من مدينة بيزنطة (٢ — ١ ق . م .) . وأول من اهتم بقصيدة الأعمال والأيام من علماء فقه اللغة فهو هوديونيسيوس ثراكس (٢ — ٢ ق . م .) ، ومن الغريب جداً أن النص اليونانى لهذه القصيدة طبع قبل النص اليونانى لأشعار هوميروس بما يقرب من عشر سنين .

والخلاصة أن هسيودوس لم يعاوده النسيان ، وما فتئت أشعاره تثير الوجدان ، لأنه عاش قريب الصلة بالأرض والحياة الدنيا ، وشرح القانون الأساسى لبنى البشر ، وهو الحاجة إلى العدالة والعمل الشريف . وهذا القانون لم يبطل ولن يبطل يوماً من الأيام . ولا تزال نصيحته الصارمة قابلة للتطبيق ، ولا تزال بعض صفاته الريفية تبعث الدفء فى القلوب .

مذكرات توضيحية للمراجع

هوميروس . ندين بأول طبعة للنص اليونانى للإلياذة والأوديسية معًا إلى ديميتريوس خلقونديليس ، والصفحة الأخيرة من هذه الطبعة مؤرخة فلورنسة ٩ ديسمبر ١٤٨٨ . لكن هذه الطبعة لم تتم قبل ١٣ من يناير ١٤٨٩ . انظر الصورة التى نشرناها فى هذا الفصل لصفحة من نسخة فى المكتبة العامة بمدينة بوسطن بالولايات المتحدة . وفى فهرس المتحف البريطانى للطبعات الأولى (المجلد السادس ، ص ٦٧٨) وفى :

Emile Legrand, Bibliothèque hellénique (Paris, 1885), vol. 1, pp. 9-15.

فقرات تصف هذه الطبعة الأولى من هوميروس .

أما طبعات الإلياذة . فأولها Walter Leaf (2 vol.; London, 1886-1888 1900-1902).

وثانيهما : Jan Van Leeuwen (2 vol.; Leiden, 1912-13).

وتوجد طبعة يونانية — إنجليزية قام بها : (Augustus Taber Murray in the Loeb Classical Library (2 vols.; London, 1924-25).

وطبعة يونانية — فرنسية قام بها : Paul Mazon in the Collection des Universités de France (4 vols.; (Paris, 1937-38).

وتوجد كذلك طبعة أمريكية : George Melville Bolling, Ilias Athenie — nsium. The Athenian Iliad of the sixth century B.C. (524 p.; New York : American Philological Association, 1951).

وهى محاولة لتحقيق نص بيسيستراتوس ، وقبل وولف ما يقرب من ١٠٠٠ من ١٥٦٩٣ طبعت هنا فى أسفل الصفحات ، انظر هامش ٢١ .

أما طبعات الأوديسية ، الكتب ١ — ١٢ فنشرها W. Walter Merry James, Riddell (أكسفورد ، ١٨٧٥ ، ١٨٨٦) ، والكتب ١٣ — ٢٤ نشرها David Binning Monro (أكسفورد ، ١٩٠١) ، والكتب ١ —

٢٤ نشرها Jan Van Leeuwen (ليدن ، ١٩١٧) ، والأوديسية المطبوعة بحروف روبرت بروكتور على ورق موريس فى مطبعة جامعة أكسفورد فى ١٩٠٩ كتاب جميل جداً . وتوجد طبعة يونانية — إنجليزية فى مكتبة لويب الكلاسيكية قام بها A.T. Murray (مجلدان ، لندن ، ١٩١٩) ، وطبعة يونانية — فرنسية قام بها Victor Bérard فى مجموعة الجامعات الفرنسية (ثلاثة مجلدات ، باريس ، ١٩٢٤) .

هسيودوس . الطبعة الأولى princepss للأعمال والأيام مع رعويات Eidyllia ثيوكريتوس قام بها Bonus Accursius فى ميلانو بدون تاريخ (بين ١٤٧٨ و ١٤٨١ ، حوالى ١٤٨٠) . صحيفة العنوان للأعمال (ورقة ٣٣ أ) التى نشرنا صورة حصلنا عليها من النسخة المحفوظة فى مكتبة Huntington . الطبعة الأولى لكتابى هسيودوس مع رعويات ثيوكريتوس ومؤلفات أخرى قام بها Aldus Manutius (فى البندقية ، فبراير ، ١٤٩٥ ، ١٤٩٦) . هاتان الطبعتان الأوليان مذكورتان فى فهرس الطبعات الأولى فى المتحف البريطانى (المجلد السادس ، ص ٧٥٧ ، المجلد الخامس ، ص٥٥١) .

طبعة يونانية — إنجليزية لهسيودوس مع مزامير هوميروس والهوميريات Homerica نشرها Hugh G. Evelyn-White مكتبة لويب الكلاسيكية ، لندن ، ١٩١٤) .

سوف يفرح محبو الكتب بطبعة الأعمال والأيام فى اللغة اليونانية والفرنسية ، وهى الطبعة التى قام بها مازون بحروف جارموند على يد Edouard Pelletan بباريس ، ١٩١٢ وفيها صور أخذت من لوحات خشبية حفرها Emile Colin ومقال طويل كتبه أناتول فرانس . هذا الكتاب آخر ما طبعه Pelletan . وسميت حروفه باسم كلود جارموند (توفى ١٥٦١) ، وهذه الحروف هى التى استخدمها Robert Estienne (١٥٠٣ — ١٥٥٩) فى طبعاته اليونانية بعد ١٥٤٤ ، تسر الناظر ، لكنها صعبة القراءة لكثرة حروفها المتصلة ولا تزال ثلاثة بنوط منها موجودة فى المطبعة الأهلية بباريس .

التعليقات

(١) من الغريب أن لفظ (homeros) فى اللهجة الكومية يؤدى نفس المعنى الذى يؤديه لفظ (typhlos) أى أعمى. ومن ناحية أخرى يعنى لفظ (homereua) فى اللهجة الأيونية ما يعنى لفظ (podegeo) أى يقود أو يرشد ، وعلى ذلك ربما يكون الاسم نعتاً جسمياً أو عقليا للمؤلف ، كما لو قيل « الضرير » ، « الهادى » ، (الشاعر) .

(٢) أزمير ورودس وكولوفون وسلاميس وخيوس وأرجوس وأثينة ، هذه أسماء تثير الاهتمام ، ومن الملحوظ أن أكثرها أيونى ، وأن أكثر لهجة هومير وس أيونى .

(٣) ولا سيما الجهد العظيم الذى قام عليه اثنان اسمهما شادويك وهما هكتور مونرو شادويك وزوجته نورا كرشو شادويك فى كتابهما الذى عنوانه : Hector Munro Chadwick and Norah Kershaw Chadwick, The growth of literature (3 vols.; Cambridge : University Press, 1932-1940))Isis 29, 196 (1938) vol. 1, (1932).

ويبحث المجلد الأول (١٩٣٢) فى الآداب الأوربية القديمة ، والمجلد الثانى (١٩٣٦) فى الآداب الروسية واليوغوسلافية والهندية والعبرية ، والمجلد الثالث (١٩٤٠) فى الشعوب التتارية والبولينيزية والسى دياك والشعوب الأفريقية ، فضلا عن مبحث عام ، انظر أيضاً :

Solomon Gandz, «The dawn of literature,» Osiris 7, 261-515 (1939).

(٤) عدد العبارات والأبيات المتكررة كبير ، ولا عجب ، فالتكرار من ناحية غريزى ، ومن ناحية أخرى منهجى . واجتمعت العوامل كلها على تكرار الأقوال المحبوبة . انظر المقابلة بين القطع المتشابهة فى الإلياذة والأوديسية والمزامير ، فى :

Henry Dunbar, Complete concordance to the Odyssey and hymns of Homer (Oxford, 1880), pp. 391-419.

(٥) وردت الكلمة (Aoidos) مرة واحدة فى الإلياذة ، (٢٤ – ٧٢١) ، ومرات عديدة فى الأوديسية وفى هسيودوس ، ويقابلها فى اللاتينية كلمة (Vates) ، ومعناها شاعر أو عراف .

(٦) الكلمة اليونانية المستعملة هنا هى (rhapsodoi) ومعناها الحرفى حائكو الأغانى . واستعملت هذه الكلمة لأول مرة فى هيرودوتوس (٥ ، ٦٧) للإشارة إلى من ينشدون أشعار هومير وس. ولكن من المحتمل أنها صيغت قبل ذلك ، لأنها تعبر عن عمل الشعراء المتجولين الأولين أكثر من عمل المنشدين المتأخرين الذين قلت ابتكاراتهم بسبب ما حظيت به الملاحم تدريجاً من قداسة .

(٧) مات بارى وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ، قبل أن يستطيع الانتفاع بما تجمع لديه من مادة ، ولذا لم ينل عمله ما يستحق من الالتفات والثناء . ولهذا ربما تلقى التفاصيل التالية ترحيباً ،

ومنها أنه سجل أكثر من ٢٥٥٠ أسطوانة من ذات الوجهين من أفواه تسعين منشداً مختلفاً ، وأن تسجيلاته هذه تحتوى على ملحمتين طويلتين تتألف إحداهما من ١٣٠٠٠ بيت ، والأخرى من ١٢٠٠٠ بيت ، (وهى فى ٢٢٠٠ أسطوانة) كما تحتوى على ٣٠٠ أغنية أخرى من النوع المسمى أغانى النساء (وهى فى ٥٣٠ أسطوانة) . وفى كثير من الحالات سجل بارى نفس القصائد والأغانى من منشدين مختلفين ، أو سجلها مرتين من المنشد نفسه بعد مضى بضعة أيام أو أسابيع بين التسجيلين. وبفضل هذه الطريقة يستطيع الباحث قياس التغييرات الفردية وفهم انتظام النقل الشفوى أو عدم انتظامه فهما جيداً . وأتم بارى عمله قبل فوات الأوان ، فإن إنشاء الملاحم التى سجلها كان آخذاً فى الاختفاء بسرعة ، ولولا ما قام به بارى لضاعت روايات ترجع إلى أقدم العصور . وهذه التفصيلات مستقاة من مقال كتبه المؤلف الموسيقى بيلا بارتوك (فى جريدة تيمس ، ٢٨ يونية ، ١٩٤٢) بعد أن فحص الأسطوانات التى سجلها بارى لاهتمامه الخاص بالناحية الموسيقية فيها . انظر أيضاً :

Harry Levin "Portrair of a Homeric scholar," Classical J. 32, 259-266 (1937)

حيث توجد قائمة بمؤلفات بارى .

(٨) اقتطف سولومون جاندز فى كتابه : Solomon Gandz, «The dawn of literature," Osiris 7, 304-308, 353, 384-385, 407 (1939).

أمثلة عديدة لهذه المقدرة التى تتراءى لنا سحرية . وذكر سنت بيف أمثلة فرنسية حديثة فى تقريظه لكتاب جروت ، تاريخ اليونان (أحاديث الاثنين الجديدة ١٠ ، ٦١ ، المطبوع ١٨٦٥) . ويوجد وصف لأحد الفيدائيين (أعنى حفظة الفيدا عن ظهر قلب) فى رسالة إلى ماركس ميلر من بومباى ١٨٦٣ . انظر :

Life and letters of Friedrich Max Muller (London, 1902), vol. 2, p. 134.

ومن باب المقارنة نورد هنا قصة توضح وجهة النظر الجديدة التى نجمت عن انتشار الطباعة ، وهذه القصة أنه ظهر لجماعة من محبى الأغانى بمدينة نابلى بإيطاليا أن منشدهم أعمى ، وأنه كان يتظاهر بقراءة ملحمة أورلاندو من كتاب مؤلفها أريوستو ، ولكنه كان فى الواقع يتلوها من ذاكرته ، فختم اكتشافهم هذا على مقامه عندهم . انظر :

Marc' Monnier, Les contes populaires en Italie (Paris, 1880). p.78.

ووقعت هذه الحادثة أواخر القرن التاسع عشر الميلادى :

(٩) نذكر هنا على سبيل المقارنة أن أغنية رولاندو (١١ – ٢) كلت بعد وقوع الحوادث التى ألهمتها بنحو ثلاثة قرون .

(١٠) الإلياذة ٢ ، ٤٩٤ – ٧٧٩ .

(١١) إذا استعملنا التواريخ المصرية فالحوادث المشار إليها ترجع إلى الأسرة العشرين

(١٢٠٠ – ١٠٩٠ ق . م .) أو الواحدة والعشرين (١٠٩٠ –٩٤٥ ق . م .) ، أما القصيدة فترجع إلى الأسرة الثانية والعشرين أو الأسرة الليبية (٩٤٥ – ٧٤٥ ق . م .) .

(١٢) الإلياذة ٦ ، ١٦٨ – ١٦٩ :

Pempe de min Lyciende, poren d'ho go semata lygra grapsas en pinaciptyctoi thymophthora polla.

يجب ألا تخدعنا كلمة (grapsas) إذ المعنى القديم لكلمة (grpho) هو الخدش ، وبعد ذلك بزمن طويل جدا أصبحت تعنى الخط أو الرسم (هيرودوتوس ٢–٤١) أو الكتابة (هيرودوتوس ١ – ١٢٥) . وكلمة anagignosco التى تعنى المعرفة الجيدة أو التمييز استعملها بندار (حوالى ٥٢٢ – ٤٤٢) أولا بمعنى القراءة ، وكانت كلمة epilegomai تستعمل أولا لتدل على المعنى نفسه عند هيرودوتوس (١ –١٢٤ ، ١٢٥ وغيره من البنود) . ولم تكن هناك قبل بندار كلمة تعنى القراءة . فالكلمة السورية biblion استعملها أولا هيرودوتوس لتدل على الورق أو الخطاب . ثم استعملها أرسطو فى معنى كتاب .

(١٣) أقدم ملحمة فى الغروب هى أيضاً أطولها فهى تحوى ١٥٦٩٣ بيتاً ، وهاك أرقاماً قليلة عن الملاحم الأخرى على سبيل المقارنة ، فتحوى الأوديسية ١٢١١٠ بيتاً ، والإلياذة ٩٨٩٥ بيتاً ، والكوميديا الإلهية ١٤٢٣٣ بيتاً ، والفردوس المفقود ١٠٥٦٥ بيتاً . وتمتد قصيدة « الرجل الذى حوكم من أجل الحب » أو « الذى عذبه الحب » (Erotocritos) والتى يحتمل أنها وضعت فى النصف الأول من القرن السادس عشر والتى تنسب إلى بيتزنتوس هو كورنارو Vincenzo Cornaro من بلدة سيتيا من أعمال جزيرة كريت ١١٤٠٠ بيت سياسى (أبيات تتألف من ثمانية مقاطع يضاف إليها سبعة أخرى) ، وتحوى الملحمتان اليوغوسلافيتان المشار إليهما آنفا ١٣٠٠٠ بيت و ١٢٠٠٠ بيت . ومن عجب أن هذه الملاحم جميعها تسير على وتيرة خاصة من ناحية الطول ، فأكبرها أطول من أقصرها بنحو خمسين فى المائة . حقاً إن أغنية رولاندو (١١–٢) والملحمة البيزنطية ديجنيس أكريتاس التى نظمت قبل بداية القرن الرابع عشر هما ملحمتان قصيرتان إلى حد ما – إذ تحوى كل منهما أقل من خمسة آلاف بيت . انظر :

Karl Krumbacher, Geschichte der byzantinischen Literatur (Munich, ed. 2, 1897), pp. 827-832, 870-871;

Henri Grégoire, Digenis Akritas (New York, 1942))Isis 34, 263 1942-43).

أما الملاحم الشرقية فهى أكثر طولا . فالمهابهاراتا تعد حوالى ٢٢٠٠٠٠ بيت والرامايانا حوالى ٤٨٠٠٠ بيت والشاهناما للفردوس (١١ – ٢) ٦٠٠٠٠ ، والمثنوى لجلال الدين بن الرومى (١٣ – ٢) ٢٦٦٦٠ مقطوعة . وفى هذا دليل على ما انطبع عليه الشرق من إسراف ، على حين أن طول الملاحم الغربية أكثر اتفاقاً وحجم الإنسان وطول حياته .

(١٤) الفرق بين الآداب اليونانية واللاتينية عظيم من هذه الناحية ، إذ يظهر هوميروس فى بدء العصر اليونانى أو قبل أن يبدأ هذا العصر . وعلى العكس من ذلك عاش فرجيل من ٦٨٣ —٧٣٤ بعد بناء مدينة روما (٧٠ — ١٩ ق . م .) ، أى أن الرومان وصلوا إلى النضج السياسى وأصبحوا قوة دولية كبيرة قبل أن يكون فى استطاعتهم المفاخرة بأدب جديد بأمة عظيمة . فى نهاية الحرب البونية الثانية (٢٠١ ق . م .) كان إنتاجهم الأدبى لا يزال من نوع ردىء . ولم يستيقظ طموحهم الأدبى تماماً إلا بعد فتح بلاد اليونان نفسها ، أى بعد نصف قرن .

(١٥) الرأى القائل بأن الإلياذة والأوديسية لم ينظمها مؤلف واحد ليس بجديد بأى حال من الأحوال ، إنه يرجع إلى العصور الهيلينستية الأولى ، أى إلى القرن الثالث قبل الميلاد حينما عرف من يؤيدون هذا الرأى بالمفرقين hoi chorizontes ومع ذلك قوبل رأيهم بالرفض أكثر الأحيان .

(١٦) للاطلاع على مقارنة مفصلة ، انظر :

Carl Rothe, Die Odyssee als Dichtung und ihr Verhaltnis Zur Ilias (370 pp.; Paderborn, 1914).

(١٧) خلف المصريون لنا حكايات قصيرة ، ولكنهم لم يخلفوا وراءهم قصة من الحجم المعتاد .

(١٨) انظر : Werner Jaeger, Paideia, the ideals of Greek culture (Oxford:Blackwell, 1939), vol. 1, p. 28 (Isis 32, 375-376 (1949).

(١٩) انظر : Ex arches cath' Homeron epei memathecasi pantes, Hermann Diels, Die Fragmente der Vorsokratiker (Berlin : Weidmann, ed. 5, 1934), vol. 1, p. 131، frag. 10.

(٢٠) Nemean II, 1-2. Homēridai rhaptōn epeōn aoidoi.

(٢١) تم تحقيق أول نص لأشعار هوميروس زمن بسيستراتوس طاغية أثينا . وضاع هذا النص بعد موته سنة ٥٢٧ ق . م ، أو أنه أهمل . ولكن الأشعار الهوميرية ظلت حية عن طريق الإنشاد العام والخاص وذلك فى الأعياد القومية ومنها عيد أثينا الذى كان يعقد كل عام ، والمباريات الموسيقية فى عيد أثينا الأكبر الذى كان يعقد كل خمسة أعوام (أدخل بسيستراتوس هذا الإنشاد) . وتبرهن المقتطفات العديدة التى توجد فى هيرودوتوس وأفلاطون وأكسينوفون على وجود ذاك النص القديم . فهذه المقتطفات من السهل (إن لم توجد دائماً بنصها حرفياً) معرفتها فى الطبعات التى بين أيدينا وتوجد طبعتان أخريان لأشعار هوميروس (diorthoseis) ، إحداهما أعدها الشاعر أنتيماخوس من بلدة كلاروس (بالقرب من كولوفون من أعمال إيونيا) الذى ازدهر فى أواخر الحرب البيلوبونيزية ، والأخرى أعدها أرسطو للإسكندر الأكبر الذى حملها فى كل غزواته . لم تبدأ دراسة النص دراسة علمية إلا فى العصر الهيلينستى ، حيث اعتبر زينودوتوس من بلدة إفسوس (٣ — ١ ق . م .) ، الرئيس الأول لمكتبة الإسكندرية بأنه كان « أول » ناشر (diorthōtēs) ، إذ قيل إنه أخرج قبل عام ٢٧٤ ق . م .

obeikandi.com

« أول »نص للإلياذة والأوديسية. ولكن الحقيقة أن زينودوتوس لم يكن أول ناشر، ولكنه كان أعلم باللغة ممن سبقوه ، ومن المحتمل أن تقسيم كل من الملحمتين إلى أربعة وعشرين كتاباً كان من عمله . وأدخل الرئيسان الرابع والخامس لمكتبة الإسكندرية، أعنى أرسطوفانيس من بيزنطة (٢-١ ق.م.) وأرستارخوس من ساموتراقيه (٢ - ١ ق . م.) تحسيناً كبيراً على طرق زينودوتوس . فالنص الذى نعرفه جيداً من تحقيقهما . ثم أصلح ديديموس من مدينة الإسكندرية (١- ٢ ق . م .) نص أرستارخوس . وهلم جرا . فتاريخ الدراسات الهوميرية قطاع عرضى فى تاريخ البحث العلمى عند اليونان .

(٢٢) انظر : Ho pater epimelumenos hopos aner agathos genoimen, enancase panta ta Homeru epe mathein. Xenophon, Symposium, III, 5.

(٢٣) انظر : جمهورية أفلاطون ٦٠٦ هـ .

(٢٤) انظر : W. Helbig, Das homerische Epos aus dem Denkmalern erlautert (362 pp., ill.; Leipzig, 1884; 2nd ed., 480 pp., Leipzig, 1887)

Martin P. Nilson, Himer and Mycenae (296 pp., 52 ills. 4 maps; London : Methuen, 1933).

كان كتاب هيلبج أبعد ما يكون عن الكمال ولا سيما أنه خلط بين الآثار الموقينية واليونانية بل الأترسكية كذلك . ويشتمل كتاب نلسون على نقط جدلية كثيرة ، ولكن نظريته الأساسية لا يتطرق إليها الشك . انظر :

H.L. Lorimer, Homer and the monuments (575 pp., ill.; New York : Macmillan, 1950).

(٢٥) هذا هو (Oceanos aporroos) الوارد فى الإلياذة (١٨ ، ٣٩٩) ، والأوديسية (٢٠ ، ٦٥) .

(٢٦) انظر الإلياذة ٢١ ، ١٩٥ - ١٩٧ .

(٢٧) هذا هو (Ietros gar aner pollon antaxios allon) الوارد فى الإلياذة ١١ ، ٥١٤ .

(٢٨) انظر الإلياذة ١٦ ، ٢٨ .

(٢٩) انظر الأوديسية ٤ ، ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٣٠) تحمل الكلمة اللاتينية praecordia نفس الغموض والإبهام .

(٣١) يسهل تعليل هذه الأخطاء وأشباهها ، مثال ذلك أننا نميل إلى إرجاع انفعالاتنا لا إلى المخ حيث تبدأ ، ولكن إلى القلب حيث نشعر بها فعلا ، إذ الواقع أن الانفعالات تغير من ضربات القلب ، بل تسبب خفقانا مزعجاً .

(٣٢) انظر الأوديسية ١٧ ، ٢٩٧ .

(٣٣) انظر الأوديسية ١٧ ، ٣٨٣ - ٣٨٦ .

(٣٤) الأولمبية مدة زمنية طولها أربعة أعوام ، تفصل الواحدة منها بين الأعياد الرياضية التى أقيمت مرة كل أربعة أعوام فى أولمبيا بإقليم إيليس . وبداية الأولمبية الأولى (٧٧٦ – ٧٧٣) من فوز كوريبوس من إقليم إيليس فى سباق العدو عام ٧٧٦ . ولم يصبح التأريخ بالأولمبيات أمراً منظماً إلا فى وقت متأخر جداً على يد تيمايوس من تورومينيوم بجزيرة صقلية (٣– ١ ق . م .) .

(٣٥) انظر الإلياذة ١٨ ، ٥٩٠ .

(٣٦) هذا هو الراجح إلا إذا كان بعض أنبياء التوراة – عاموس ، هوشع ، ميخا ، إشعيا – سابقين على هوميروس ، ولكن ذلك موضع شك حتى فيما يخص عاموس .

(٣٧) ليس فى أوراق البردى إشارات إلى المنشدين فحسب ، بل توجد نصوص هوميرية أصيلة كثيرة . فإن أردت أمثلة ، فانظر :

Paul Collart, «Les papyrus de l'Iliade" in Pierre Chntraine, Paul Collart and René langumier, Introduction a l'Iliad (304 pp.; Paris : Les Belles Lettres.1942).

حيث يوجد ثلثمائة واثنتان وسبعون قطعة من أوراق البردى تحوى أجزاء من الإلياذة ، فضلا عن خمس وثلاثين بردية فيها شروح وتعليقات ومقطوعات منثورة . فهذه الأربعمائة والسبع البرديات ترجع إلى الحقبة الواقعة بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن السابع بعد الميلاد. ويزداد عدد هذه البرديات كلما اقتربنا من القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم يأخذ فى النقصان مع اضمحلال الثقافة اليونانية فى مصر. انظر :

Chronique d'Egypte, No. 36 (1943), P. 315.

(٣٨) لم تترجم الإلياذة إلى اللغة العربية إلا منذ وقت قريب جدا، نقلها إلى العربية سليمان البستانى وطبعت لأول مرة فى القاهرة فى ١٩٠٤ وهى فريدة فى الأدب العربى وليست بذات أهمية فى دراسة التراث الهوميرى .

(٣٩) من المؤكد أن التراث الهوميرى استمر فى رواية فرجيل، غير أن تقريرنا هنا ينصرف إلى هوميروس مستقلا عن فرجيل .

(٤٠) يحتمل أن تكون قصة تيليماك ألفت فى ١٦٩٣ – ٩٤ م ، وأما تأخير نشرها إلى ١٦٩٩ م فيرجع إلى عدم تحرز ناسخ ، على أن الطبعة الرسمية وهى لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن الطبعات العديدة السالفة لها ، فقد ظهرت فى ١٧١٧ بعد سنتين من وفاة رئيس كبراى ، بعناية سليل من العائلة ، وهو المركيز دى فينيلون .

(٤١) فى القرن التاسع عشر لم تعد قصة تيليماك معتبرة من القصص المتحررة المجددة ، بل على العكس أمست معتبرة قصة محافظة جداً ، وعلى مر الأيام غدت قصة جد عتيقة . هل يسمح لى القارئ أن أقص عليه الحكاية التالية؟ كثيراً ما أخبرتنى جدتى لأبى التى تعلمت فى مدرسة فرنسية تشرف عليها راهبات أن قصة تيليماك كانت أحد كتبها الأساسية المقررة ، وأن الراهبات ألقين فى روعها أن قصة تيليماك تحوى جميع الكلمات (الجيدة) فى اللغة الفرنسية، ويستخلص من هذه الحكاية أنه على حين

كان كتاب ملخص التاريخ المقدس (أو ما يشبهه من الكتب) هو منبع التراث العبرى والمسيحى لتعليم جدتى ، فإن تيليماك غرس فى ذهنها الثقافة الهوميرية واليونانية .

وترجمت قصة تيليماك من الإنجليزية إلى اليابانية عام ١٨٧٩ تحت عنوان : هينيرومومونوجاتورى واستخدام فى ترجمتها الأسلوب الذى كتبت به الروايات اليابانية القديمة وهو نثر موزون عليه مسحة من الصينية : انظر :

G.B. Sansom, The Western World and Japan (New York : Knopf 1950), pp. 400, 40 (Isis 42, 163 (1951).

وهكذا وصل الفكر اليونانى كما فسره أحد الفرنسيين فى القرن السابع عشر إلى الشرق الأقصى بعد قرنين اثنين من نقله إلى الفرنسية .

(٤٢) يرتكز تأريخى لقصة إيثيوبيكا على البحث الذى قدم به R.M. Rattenbury لطبعته التى نشرتها جماعة Guillaume Budé (2 vols. Paris, 1935-1938). وهذا التاريخ افتراضى ، لأنه ليس من المؤكد أن مؤلف القصة والأسقف شخص واحد .

(٤٣) انظر : Aethiopica, III, 14. .

(٤٤) فضل الكاتبون المتصوفون أمثال برسيناس (٢ — ٢) فى كتابه وصف بلاد اليونان ١٠ ، ٢٤ ، ٣ ، وفيلوستراتوس من ليمنوس (٣ — ١) ، وهيرويكوس ٢٨ ، ١ — ٣ ، أن يعترفوا بجهلهم بأصل هوميروس منذ تعرضهم للحرب الطروادية فى مؤلفاتهم .

(٤٥) يقع هذا الكتاب فى ثلاث مجلدات (غنت ١٨٠٦) . ورأيت أن أورد هنا صورة صحيفة العنوان المنهجى من نسخة تفضلت مكتبة الكونجرس بإعارتها . وتوجد صحيفة العنوان هذه فى كل المجلدات الثلاثة ، ونص آخر سطر من العنوان الإضافى فى كل من هذه الصفحات كالآتى : « إن الشاعرين هوميروس وهسيودوس كانا أصلا من بلجيكا » . ولمعرفة أخبار المؤلف ، انظر النبذة المدونة فى المجلد الأول ، ص ٩ — ١٦ والمقال الذى كتبه :

Edm De Busscher in Biographie nationale de Belgique (Brussels, 1876), vol. 5. pp. 114-127.

(٤٦) انظر : Olaus Rudbeck, Atlantica (1679-1689),

ولهذا الكتاب طبعة جديدة أشرف على إخراجها Axel Nelson فى مطبوعات الجمعية السويدية لتاريخ العلوم (أبسالا ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، ١٩٤١) (إيزيس ٣٠ ، ١١٤ ، ١١٩ (١٩٣٩) ٣١ ، ١٦٥ (١٩٣٩ — ١٩٤٠) ، ٣٣ ، ٧١ (١٩٤١ — ١٩٤٢) .

(٤٧) لدينا وثائق كثيرة عن حياة فردريك أوغست ولف ومؤلفاته (١٧٥٩ — ١٨٢٤) ، انظر :

Wilhelm Korte, Leben und Schriften Friedr. Aug. Wolf s, des Philologen (2 vols. Essen, 1833).

J.F.J. Arnoldt, Fr. Aug. Wolf in seinem Verhaltnisse zum Schulwesen und zur Paedagogik (2 vols. Brunswick, 1861-62).

Victor Bérard, Un mensonge de la science allemande (300 p. Paris, 1917).

Siegfried Reiter, F.A. Wolf. Ein Leben in Briefen (3 vols. Stuttgart : Metzler, 1935).

وبه قطعة كتبها وولف عن حياته (المجلد الثانى ، ص ٣٣٧ — ٣٤٥) .

(٤٨) استخدمت كلمة « جبل » هنا بمعنى الجهل بفقه اللغة ، فلم يكن شليمان عالما مدرباً ، بل هاوياً علم نفسه . ومع هذا حفظ شليمان أشعار هوميروس عن ظهر قلب ، وعرف الألفاظ اليونانية وأحاط بالمعانى التى تثيرها فى مخيلته عبارات اليونانيين . ثم إنه عكف على دراسة اللغة اليونانية حتى أتقنها ، وصار فى استطاعته مناقشة الآداب اليونانية المحلية مع زوجه اليونانية (منذ ١٨٦٩) وأصدقائه ، فضلا عن المدرسين والبحارة والرعاة اليونانيين ، وكذلك أعظم علماء اليونان ، وكذا أقل الناس شأناً . ومن هذه الوجوه فاقت عدته العلمية تفوقاً هائلا على عدة الباحث العادى .

(٤٩) لقى شليمان نقداً كثيراً لا من علماء اللغة ذوى الكراسى الوثيرة فحسب ، بل من علماء الآثار الذين عابوا طرقه بعد أن رأوا ما أدخل على فن الحفريات من تحسينات فيما بعد . وإذا أردت تقديراً عادلا لجهود شليمان فانظر :

Stanley Casson (1889-1944), The discovery of man (London : Harper, pp. 226-227 (Isis 33, 302-303 (1941-42).

(٥٠) Paroimia, Cata ten paroimian = كما يقول المثل (أفلاطون) . توجد قائمة للأمثال اليونانية فى كتاب :

Hermann Bonitz, Index aristotelicus (Berlin 1870), p. 570.

(٥١) هذا هو النص اليونانى :

Ei caca tis speirai, caca cerdea c'ameseien Hesiod, fragment in Loeb Classical Library ed., p. 74.

(٥٢) هذا هو النص Ego. de ce . . etëtyma mythëaimën من قصيدة الأعمال والأيام ، بيت ١٠ .

(٥٣) وقع مقتل هسيودوس ، نقلا عن ثيوكديديس ٣ ، ٩٦ بالقرب من معبد زيوس فى بلدة نيميا بإقليم أرجوليس ، وربما كان هذا القول ناشئاً عن خطأ فى الفهم . ذلك أن ذكرى مصرع هسيودوس واردة فى الأبيات الجميلة التالية التى نظمتها القايوس من مسينا حوالى ٢٠٠ ق . م . ، « عندما رقد هسيودوس ميتا فى ظلال أشجار لوكريا ، غسلت عرائس النهر جثمانه بماء من ينابيعهن ، ورفعن قبره عالياً ، ونثر رعاة المعز عليه قرابينهم من لبن ممزوج بعسل شهد أصفر . وهكذا قالت ربات الفن التسع أن ذلك الرجل العجوز قد ذاق ينابيعهن النقية » . البيت الأول فى النص اليونانى هكذا

(أنثولوجيا يونانية ٧ ، ٥٥) . Locridos en nemei sciero necyn Hesiodoio وتعنى لفظة (nemus) المراعى المغطاة بالأشجار ، واسم العلم نيميا مشتق منه ، ومن الممكن أن ثيوكديدس خلط بين كلمة عادية واسم البلدة المشتق من هذه الكلمة .

(٥٤) اشتهر البيوتيون بالغباء و بلادة الفهم ، وشغف اللاتينيون بالسخرية منهم. وسواء استحق للبيوتيون هذه الشهرة السيئة أم لم يستحقوها ، فقد حفظت اللغة الإنجليزية لفظين هما : بيوتيا Bocotia و بيوتى Boeotian بمعنى البلادة والبلداء .

(٥٥) قصيدة الأعمال والأيام ، الأبيات ١٠٩ — ٢٠١ .

(٥٦) المصدر نفسه ، الأبيات ٣٨٣ — ٦٩٤ .

(٥٧) المصدر نفسه ، الأبيات ٣٨٣ — ٤٠٤ ، ٥٨٢ — ٥٩٦ . وهذه المقتطفات من ترجمة :

Hugh G. Evelyn-White in the Loeb Classical Library, pp. 31, 47 (1914).

(٥٨) أحسن بهذا جميع الناشرين الأولين الذين قاموا على نشر قصيدة الأعمال والأيام ، والواقع أن الطبعات الأولى لهذه القصيدة لم تقتصر على قصيدة الأعمال فحسب بل اشتملت كذلك على رعويات تيوكريتوس السرقوسى التى يرجع تأليفها إلى ٢٨٥ — ٢٧٠ ق م .

(٥٩) انظر : S.N. Kramer, Scientific American (New York, November 1951), : pp. 54 — 55.

(٦٠) قصيدة الأعمال والأيام ، الأبيات ٧٢٧ — ٧٣٢ .

(٦١) المصدر نفسه ، مكتبة لويب ، ص ٦٥ .

(٦٢) قصيدة أصل الآلهة ، الأبيات ٢٩ — ٣٤ .

(٦٣) المصدر نفسه ، مكتبة لويب ، ص ٨١ .

(٦٤) الإلياذة ١ ، ٧٠ .

(٦٥) هذا هو النص اليونانى :

Ego eimi pan to gegonos cai on cai esomenon cai ton emon peplon udeis po thnetos apecalypsen. Plutarch, Isis and Osiris, 354 c.

(٦٦) ورد اسم هسيودوس فى البيت الثانى والعشرين من قصيدة أصل الآلهة . ويفهم من هذا أنه إشارة من المؤلف المتأخر الذى نظم قصيدة أصل الآلهة إلى هسيودوس الذى كتب الأعمال والأيام . ألا يمكن كذلك أن يفهم من هذه الإشارة أنها إشارة من الشاعر هسيودوس إلى نفسه فى قصيدة متأخرة ، وهى قصيدة أصل الآلهة .